محمد العبدة

تأملات

في الفكر والدعوة

دار الجوهري
للنشر والتوزيع

تأملات

في الفكر والدعوة

محمد العبدة

الطبعة الأولى

دار الجوهري
للنشر والتوزيع
عمّان - الأردن

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(١٩٩٩/١٢/٢٣٦٠)

رقم التصنيف	: ٢١١
المؤلف ومن هو في حكمه	: محمد العبده
عنوان الكتاب	: تأملات في الفكر والدعوة
الموضوع الرئيسي	: ١- الثقافة الإسلامية
بيانات النشر	: عمان : دار الجوهري

تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

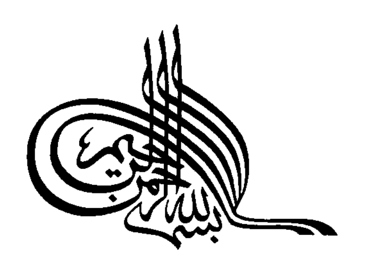


للنشر والتوزيع

عمان - الأردن

العبدلي - مقابل البنك العربي

ISBN 9957-410-03-x (ردمك)





بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا إله إلا الله، إله الأولين والآخرين ، وقيوم السموات والأرضين ، والصلاة والسلام على عبده ورسوله ، وخيرته من خلقه محمد بن عبد الله المبعوث بالدين القويم رحمة للعالمين ، وبعد :

هذه مقالات ، أو (ورقات) كُتبت في أوقات متباعدة ، ولكنها تنتظم في سلك واحد ، ويجمعها هدف واحد ، أنها تأملات في واقعنا الثقافي وواقعنا الدعوي ، وإصلاح للفكر الإسلامي في بعض جوانبه والتنبيه إلى الخلل الواقع في علاقاتنا الاجتماعية.

إن موضوعات مثل (العقل والعاطفة) أو (الدين والدنيا) قد لا تكون جديدة على القارئ . ولكن هذه الموضوعات من النوع الذي يتجدد ويحتاج إلى إعادة نظر ، فالتوازن في شخصية المسلم من العوامل المساعدة على الفاعلية المطلوبة ، وإن الخلل في مثل هذه الأمور يطيش بالميزان لغير صالح المسلم . وكذا تحدثت عن الأخلاق والأمن النفسي لما لهما من صلة بشبكة العلاقات الأخوية ، وهي من المنطلقات الكبرى في نهضة المسلمين، وأي ضعف يعتريها سيكون له آثار سلبية في حياة المسلمين **﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾** . وتكلمت عن (السياسة) و (الواقعية) لإيضاح الجانب الإيجابي الذي نستفيد منه ، ومن أين جاء التشوش في ذهن المسلم عن هذه المصطلحات ، وأما موضوع التاريخ وكيف نستفيد منه ، فلما نلاحظ من

النقص الكبير في وعي الأمة بتاريخها ، وقراءته لمصلحتهـا وتكويـن (الذاكـرة الجماعية) وكان الحديث أيضاً عن التجدد الدائم في حياة المسلم ، وهو يعنـي التحسين المستمر حتى لا نقـع في الجمـود والانغـلاق ، وذكـرت نمـاذج مـن التجدد الثقافي في هذا العصر ، وكيف تطور بين مد وجزر.

قد تكـون بعـض هـذه الموضوعـات أو ربمـا كلهـا بحاجـة إلى تفصيـل وتوسع في البحث ، ولعل الله ييسر ذلك ، ويكفي أنهـا مطالعـات مهمـة في حياتنا الثقافية و الدعوية ، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

المؤلف

التجدد في حياة المسلم

« وقبيح بمن أعطي شمعة يستضيء بها
أن يطفئها ويمشي في الظلمة »

ابن الجوزي

يحب الإنسان مألوفاته ، ويميل إلى صيغ يرتاح لها ، وعادات لا يحب تغييرها ، ولا يتعب نفسه في التفكير بغيرها ، ويتقبل بسهولة الآراء الصادرة عن أشخاص هم موضع ثقته . فالتقليد -كما يقول ابن خلدون- عريق في الإنسان ، وقلة هم الذين يناقشون الأفكار السائدة ليعرفوا صحيحها من زيفها ، وقلة هم الذين لا يرضون بالواقع ويستطيعون تجديد حياتهم أو تجديد مجتمعاتهم.

نعى القرآن على الناس هذا الجمود في الفكر ، وهذا الكسل الذهني كما نعى عليهم اتباع الآباء والرؤساء (الملأ) دون تدبر أو تفكر ، وإنما هو محض التقليد . كما أزرى عليهم انخداعهم بـ(أحبار السوء) الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ، ويبيعون دينهم بدنياهم أو بدنيا غيرهم ، وخدعة هؤلاء أشد بلاء من خدعة رؤساء الدنيا الذين يستعبدون الناس عن طريق شهواتهم وتمتعهم بالمال . أما أحبار السوء فيحاولون السيطرة على القلب والعقل.

بعث الله سبحانه وتعالى الأنبياء ليردوا الناس إلى الجادة المستقيمة ، وليعودوا بهم إلى الفطرة السليمة ، وليعلموهم كيف يكونون أحراراً بالعبودية التامة لله ، وجاء المصلحون والعلماء ليزعجوا الناس من سباتهم وجمودهم على آراء ما أنزل بها من سلطان ، وقد روى الترمذي عن رسول

الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يكن أحدكم إمعة يقول : إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم ... » [1].

التجدد سنة كونية :

ليس التجدد مقصوراً على عالم الفكر أو السلوك ، بل هو سنة كونية، فإننا نلاحظ تجدد خلايا الجسم باستمرار ، ولكن يبقى لكل إنسان خصائصه التي يتميز بها ، وفي الكون الواسع (كتاب الله المنظور) دعا القرآن الناس للتفكر في تعاقب الليل والنهار[2] والشمس والقمر وإحياء الأرض بعد موتها، واتساع الكون ، وعجائب خلق الله في النبات والحيوان والإنسان.

كان العلم الطبيعي قد قفز قفزات كبرى في القرن التاسع عشر الميلادي وظهرت اكتشافات واختراعات ، ولكن هذا العلم أعجب بنفسه وكان ملحداً أو أقرب إلى الإلحاد . ثم جاء القرن العشرين ، وظهر علماء لا يركنون إلى التقليد ، وتبين لهم بعد البحوث والدراسات كم هو مغرور ذلك العلم الذي عاد ليطامن من كبريائه وليعترف كما يقول أساطنيه : « بتفوق الروحانيات ، والاعتراف بالله وبوجود غائية في الكون ، وبالمبدأ الإنساني»[3] ويقولون أيضاً : « النظرة القديمة ضيقة الأفق ، كانت المنفعة شعار ذلك العصر ، هذا العلم لا يعرف شيئاً عن الجمال والقبح ، وعن الخير والشر ، أو عن الله والأزلية » [4] .

---

(١) الترمذي (٢٠٠٧).

(٢) ويسميان : الجديدان ، لأنهما لا يبليان.

(٣) روبرت أغروس وجورج ستانيسو : العلم في منظوره الجديد ص١٢٩ ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٨٩م.

(٤) المصدر السابق ، ص١٣٤.

دعوة للتفكر ومراجعة النفس :

وقصص القرآن دعوة للتفكر والمقارنة ، وما يتجدد في هذه الحياة الدنيا من رفعة وذلّة ، وفقر وغنى ، وقيام أمم وسقوط حضارات . وهذه القصص مكررة معادة ، حتى لو قرأ المسلم سورة أو سورتين وجد أمامه عظة التاريخ . وهذه الدعوة في القرآن ما هي إلا ليبتعد المسلم عن طرق التفكير البالية ، والعادات والأنماط التي لا تقوم على سند علمي ، وليس لها أساس من عقل أو نقل . إن نفس الإنسان تستحق « أن يتعهد شؤونها بين الحين والحين ، ليرى ما عراها من اضطراب فيزيله ، وأن يرجع إليها توازنها واعتدالها كلما رَجّتها الأزمات وهزّها العراك الدائب على ظهر الأرض »[1].

تجدد المعلومات :

أرأيت إلى طبيب لا يتابع أخبار البحوث الجديدة في عالم الطب والأدوية ، ولا يتابع المراجع والمجلات العلمية ، كيف سيكون حاله وثقة الناس به ؟ أرأيت إلى المدرس المربي الذي لا يجتهد في اتباع أحسن الطرق المؤدية إلى عقل التلميذ ، ولا يستفيد من النظريات التربوية ، كيف سيكون حاله ، ألا تحتاج الآلات التي نستعملها إلى تفقدها بين الفينة والأخرى وإصلاحها و(شحذها) حتى تبقى لها خواصها ونستفيد منها ؟ وصاحب الأوراق والملفات ألا يحتاج إلى إعادة ترتيبها والتخلص مما لا فائدة منه بين كل فترة وأخرى ؟ افرض أنك قرأت كتاباً قبل عشر سنوات ، وأعدت قراءته الآن ، هل تجده كما قرأته سابقاً ؟ أم ستكتشف فيه أبعاداً أخرى ، أو

---

(١) محمد الغزالي : جدد حياتك / ١٧.

قد ترى عيوباً لم تكتشفها . إن بعض الناس قرأ قبل عشرين سنة ثم يقول لك : قال الكاتب الفلاني ، وتكون هذه الفكرة قد عفا عليها الزمن وتجازوها أهل العلم ، أو ظهر ما هو أوضح أو أكثر تفصيلاً . ومشكلة هؤلاء أنهم لا يقرأون « والشخص الذي لا يقرأ ليس بأفضل من الذي لا يعرف القراءة » [١] .

ألا يحتاج الإنسان لمراجعة معلوماته المكتسبة ، هل ما تزال صحيحة في ميزان الشرع والعلم ، « ويقال إن على المتخصص المعاصر أن يضع في حسابه دائماً أن نحواً من ١٠ – ٢٠٪ من المعلومات التي في حوزته قد شاخ، وعليه أن يجدده » [٢] .

من آثار الجمود الفكري :

عندما يسيطر الجمود والتقليد ، ويغلب على الناس ضعف الهمم ، يصبح العلم كله حواشي ومختصرات ، وشروحاً للمختصرات وتعليقات على الشروح ، فتفسير البيضاوي اختصره من الكشاف للزمخشري ومفاتيح الغيب للرازي ، وتفسير النسفي اختصره من البيضاوي ومن الكشاف للزمخشري وتفسير الخازن اختصره من معالم التنزيل للبغوي ، ومن يقرأ كتاباً عن علماء الدولة العثمانية يجد أنهم لم يتجاوزوا كتباً محددة قليلة ، كتباً للسكاكي والعضد الإيجي والتفتازاني والبيضاوي ، ومرت قرون وهم يشرحون ويلخصون هذه الكتب دون إضافة أو تجديد ، جاء في ترجمة إبراهيم بن محمد بن عرب شاه الإسفراييني (٨٧٣–٩٤٥هـ) : « ومن مؤلفاته : شرح

---

(١) ستيفن كوفي ، العادات السبع للقادة الإداريين / ٣١٠.

(٢) عبد الكريم بكار ، مدخل إلى التنمية المتكاملة / ١٤٣.

تلخيص المفتاح للقزويني ، وحاشية على تفسير البيضاوي، شرح رسالة الوضع للإيجي »[1] . وفي ترجمة إبراهيم الحلبي (- ٩٥٦هـ) : « فقيه حنفي من أهل حلب ، ومن مؤلفاته : تلخيص القاموس المحيط ، تلخيص الفتاوي التتارخانية ، تلخيص على الجواهر المضية في طبقات الحنفية »[2] . وفي ترجمة الشيخ إبراهيم الباجوري وهو شيخ الأزهر (١١٩٨-١٢٧٧هـ) : « ومن مؤلفاته : حاشية على مختصر السنوسي (منطق) ، حاشية على الشنشورية (فرائض) ، حاشية على أم البراهين للسنوسي (علم كلام) حاشية على شمائل الترمذي »[3] .

أهمية التجدد :

فالتجدد الذي نعنيه يقابله الجمود والانغلاق والكسل الذهني، سواء على مستوى الفرد أو المؤسسات الدعوية والثقافية . والتجدد هو إعادة التحسين المستمر ، ليرتفع الإنسان إلى آفاق أعلى في الفهم والتطبيق، والمؤسسات والدعوات التي تعجز عن مواجهة ما يطرأ أو يتجدد تقضي على نفسها بالتقهقر . وكما يقول الرازي الطبيب : « ومن لم يستزد من شيء ما، نقص لا محالة ، وتخلف عن رتبة نظرائه » ، ولا بد من التنبيه هنا أنه ليس المقصد الحديث عن التجديد الشامل كما جاء في الحديث النبوي: « يبعث الله على رأس كل قرن من يجدد لهذه الأمة أمر دينها » فهذا له موضوع آخر، إنما نعني التجدد الدائم أو في فترات متقاربة ، والذي لا يملك عقلية

(١) خير الدين الزركلي ، الأعلام ، ١/٦٦.

(٢) المصدر السابق ، ١/٦٧.

(٣) المصدر السابق ، ١/٧٧.

التجدد يقدس أقوال الرجال وكأنها معصومة ، ويرجع إلى الماضي ليقلده (شكلياً) حتى يشعر بالانتماء فهناك من له مصلحة في بقاء المؤسسة التي ينتمي إليها ، فهو لا يحب التجدد . هذه المؤسسة التي وقعت أسيرة أشكال معينة[1] وأفكار معينة ، وهؤلاء يعتبرون التدخل في شؤون هذه المؤسسات ضرباً من التطاول على الحرمات ، وعندما يظن الإنسان أنه قد بلغ رتبة الكمال فسوف يتوقف عن النمو والعطاء .

إن تعقد كيان الإنسان العقلي والنفسي والجسمي يجعل من الضروري أن تبذل محاولات للتجدد حتى لا يقع الإنسان في الأحكام الخاطئة.

من أين يأتي التجدد :

يأتي التجدد من تصحيح طرق التفكير ، ومن إيجاد المناخ العلمي والنفسي الذي يفتح القدرات ، ويساعد على النمو الطبيعي ، وهو المناخ الذي أوجده القرآن عند المسلمين الأوائل ، عندما شنّع على الناس تطلعهم للمحاكاة والتقليد في سيئ الأعمال ، وعندما دعا الناس إلى التفكر والتدبر ، وضرب لهم الأمثلة والمقاييس العقلية ﴿**ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون**﴾ [الواقعة/٦٢] ، ﴿**لعلمه الذين يستنبطونه منهم**﴾ [النساء/٨٣]، ﴿**فاعتبروا يا أولي الأبصار**﴾ [الحشر/٢] والاعتبار هو قياس الشيء بالشيء.

إن الشخصيات الكبيرة تساعد على التجدد أيضاً ، هؤلاء الذين يهزّون معاصريهم ويدفعوهم دفعاً للنظر في أحوالهم ، وعندهم إحساس

---

(١) كما هو في بعض الجماعات الإسلامية اليوم.

بالمسؤولية . وقد استفاد الشافعي رحمه الله من مدرسة الإمام مالك ومدرسة أبي حنيفة ولم يقف عندهما ، وكان من نتائج ذلك أنه وضع للفقه أصولاً وضوابط في كتابه (الرسالة) خوفاً من الانفلات في الاجتهاد وكان كذلك الإمام أحمد حين أحس بالمسؤولية تجاه صفاء العقيدة ومنهج أهل السنة.

إن ثقافة قوية كالثقافة الإسلامية لا تخشى من الأسئلة التي تتولد باستمرار نتيجة الوقائع الجديدة والأحداث الجديدة ونتيجة زيادة معارف الإنسان العلمية ، والجامدون الذين لا يتعمقون في فهم القرآن والسنة ، وفهم مقاصد الشريعة هم الذين لا يستطيعون الإجابة عن هذه الأسئلة.

التجدد في حياتنا الثقافية في العصر الحديث :

إن إجلالنا واحترامنا للعلماء السابقين يجب ألا يمنعنا من تجاوز أخطائهم ، وهناك موضوعات وإشكاليات طُرقت ، كانت مناسبة لعصرهم أو في حاجة لها ، وليس عندنا هذه الإشكاليات اليوم أو قد تكون هناك أولويات قبلها . وليس أدعى إلى تثبيط الهمم وعدم التجدد من قول القائل (لم يترك الأول للآخر شيئاً) فإن ما كتب في التفسير وبيان إعجاز القرآن في هذا العصر يفوق في بعض جوانبه ما كتبه الأوائل ، ومن يطلع على ما كتبه الآلوسي والقاسمي ورشيد رضا والشنقيطي وسيد قطب ومحمد عبد الله دراز[١] يرى كيف يفتح القرآن كنوزه لكل عصر ، وقد أبرز رشيد رضا سنن الله تعالى في الخلق والمجتمعات ما لم يبرزها غيره ، كما نجد التنقيح العلمي عند الشنقيطي[٢] . لقد فتح هؤلاء أبواباً مشرعة للتعرف على كنوز القرآن .

---

(١) في كتابه (النبأ العظيم).

(٢) في تفسيره : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن.

قامت جهود علمية كبيرة لتحقيق التراث ، وإبراز الكتب المهمة التي تساعد على نهضة المسلمين ، كما فعل رشيد رضا في تحقيق كتاب (الاعتصام) للشاطبي ، وفي التنويه بأهمية (الموافقات) للشاطبي أيضاً ، وكما في تحقيقات الشيخ أحمد محمد شاكر ومحمود محمد شاكر . وأحيا الشيخ ابن عاشور فقه مقاصد الشريعة ، وجدد الرافعي ومحمود محمد شاكر والبشير الإبراهيمي والعقاد في أسلوب الكتابة وظهرت عبقرية اللغة العربية . ومع هذه الجهود فقد انشغل المسلمون بالرد على الهجوم الاستشراقي وكذلك التغريبي ، وكانت لهجة الدفاع (الاعتذارية) هي الغالبة . وجاءت موجات فكرية هبت على الشعوب الإسلامية وعلى البلاد العربية بشكل خاص ، مثل القومية والاشتراكية والعلمانية ... وحاول كتاب إسلاميون تقريب الإسلام للناس ، وتأثروا بالثقافة الدفاعية فكتبوا عن (اشتراكية الإسلام) أو (ديموقراطية الإسلام) و (الأمة العربية في معركة تحقيق الذات) ولكن هذه الفترة لم تدم طويلاً . وجاء بعدها طبقة من المفكرين نقدوا هذا الاتجاه وأظهروا تميز الإسلام وخصوصيته ونقاءه كما نقدوا التوجه العام للحضارة الغربية بعد أن فُتن بها كثير من المتعلمين ، وأبرز هؤلاء القضايا الاجتماعية التي اهتم بها الإسلام وركزوا على مفهوم العبودية وتوحيد الألوهية لإعادة المفهوم الشامل للعقيدة الإسلامية ، ولكن هذه الطبقة من المفكرين وقعت أيضاً في أخطاء منهجية شرعية ، فهل نتوقف عندهم ونجمد على أفكارهم ونكرر كلامهم ؟ أم نستفيد من الصواب الذي جاءوا به ونتجاوز الأخطاء.

أعقب هذا مرحلة تميزت بالتأصيل الشرعي للقضايا المطروحة والاهتمام بالعلم الشرعي بشكل عام ، وقامت جهود علمية لتنقية التراث مما علق به من أحاديث ضعيفة أو موضوعة أو من خرافات وبدع ، ونبغ طلبة

في العلم الشرعي ، وقامت دراسات تبحث عن الخلل وتتكلم عن واقع الأمة. ولكن صاحب هذا إغراق في الجزئيات ونقص في المنهج الشمولي (العملي) . ولو استمر المسلمون في الاستفادة مما كتب في هذا العصر ، وابتعدوا عن الأخطاء لتراكمت المعارف والخبرات وازداد المسلمون وعياً بواقعهم، وفي فترة من حياتنا الفكرية ارتبط اسم رشيد رضا بمدرسة الأفغاني، فوقع شيء من الإعراض عنه ، ولكن عندما قُرئ بتأن وتجرد وُجد عنده خير كثير ، وأما أخطاؤه فتُترك.

عاد الكسل الفكري والتقليد في السنوات الأخيرة ، فأصبح تحقيق التراث مرتعاً لكل من هبّ ودبّ، وأصبح التأليف أكثره اجتراراً ، ولا جديد إلا أشياء قليلة هنا وهناك ، وإذا نظرت في محتوى بعض دور النشر فستجد هذه العناوين : (تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب) ؟! و(تأييد الإنكار لإتيان الطيور ونحوها في الأوكار) ؟! فهل نحن بحاجة إلى تحقيق مثل هذه الكتيبات ؟ هل المسلمون بحاجة لأن يؤلف في قطر عربي واحد أكثر من سبعين كتاباً حول (الجن والشياطين) ولم يؤلف كتاب ذو أهمية حول الإنس وكيف ينهضون . وما كُتب عن المرأة وشؤونها يبلغ العشرات بل المئات وأكثره معاد ومكرر . هل نحن بحاجة إلى (علم الكلام) الذي يريد بعض الكتاب إحياءه وهو لا يمثل صفاء ونقاء العقيدة الإسلامية، وإذا كان له دور في فترة من الفترات -كما يزعمون- فقد انتهى دوره الآن ونحن بحاجة للرجوع إلى طريقة القرآن العلمية الفطرية البرهانية لمخاطبة النفس الإنسانية . هل من التراث أن نعتبر خطبة الحجاج بن يوسف من روائع أدبنا ، وكلها مملوءة بالعسف والظلم ، وهل نقائض جرير والفرزدق أجمل ما عندنا من الشعر ، أم هناك ما هو أصدق لهجة وأكثر تأثيراً في النفس والمجتمع ؟

عاد أيضاً الأسلوب الاعتذاري الدفاعي بعد أن انحسر في حياتنا العلمية والثقافية ، ونجح العلمانيون في إشغال بعض الدعاة والمشايخ في مشاكل الفن والمرأة والتعددية الثقافية والحزبية ، وموضوعات ليس لها رصيد من الواقع ، واستجاب هؤلاء لهذه الخديعة ، وكان الأولى بهم أن ينشغلوا بالبناء العملي. فالقضية ليست في امتلاك (المعرفة) ولكن الأهم من هذا هو إرادة التغيير وامتلاك هذه الإرادة ، وتحويل الأهداف إلى عمل تطبيقي.

التجدد والدعوة :

نشأت في العصر الحديث الجماعات والجمعيات الإسلامية بسبب ظروف المسلمين الصعبة ، وقد سدت هذه الجماعات ثغرة كان من الواجب أن تسد للوقوف أمام حملات التغريب ولاستئناف حياة إسلامية وإرجاع الناس إلى دينهم ، وتربية الأجيال على العقيدة السليمة والخلق القويم ، ومن أعظم آثار العمل الإسلامي ، هذا الجيل من الشباب المتعلم المثقف الذي يحمل هموم الدعوة وهموم الإسلام.

اصطدمت هذه الجماعات بالمشروع العلماني التغريبي ، وبما يفوق قدراتها وحجمها ، إضافة إلى جمودها عند موروث المؤسسين ، وأصبح التجدد والتجديد ينظر إليه بريبة ، وأصبحت الشكلية الهيكلية وكأنها هي الغاية، كل هذا أعاق تحقيق النتائج . كما أعيق الفكر عن الانطلاق لتصحيح الخطأ . لم تسأل هذه الجماعات نفسها عن الشعارات التي رفعتها، هل ما زالت صحيحة وذات فاعلية ؟ وهل كان تبسيط الأمور على طريقة : تربية الفرد ثم الأسرة فالمجتمع فالدولة ، هل سيصل بنا إلى التغيير المنشود ؟ هل سألت الجماعات نفسها : لماذا هذا الضعف وهذه القلة ؟ هل راجعت نفسها

بالاستماع إلى أهل العلم والفكر، هل انتبهت لنفسها وإذا هي غارقة في الوسائل التنفيذية وبعدت عن التخطيط السليم ، هل أتيحت الفرصة لأهل العلم والفكر لإقامة الدراسات حول تاريخ الدعوة ، أو لممارسة النقد الذاتي، أو لإقامة المشاريع العلمية ؟ كل هذا يرجع إلى القناعة بفكرة التجدد والتجديد . والذي لم يخطر على باله موضوع التجديد أو هو غير مقتنع به فكيف يتأتى له الإصلاح ؟!

إن الحديث عن التجدد قد يثير سؤالاً حول الثوابت والمتغيرات ، مع أن هذا السؤال يُثار عادة عندما يكون الكلام حول التجديد بمفهومه العام والشامل كما ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي هذا الإطار يحاول العصرانيون الاصطياد بالماء العكر ، واستخدام مصطلح (التجديد) لهدم الأصول والثوابت أو (لتثوير) اللإسلام من داخله ، حين يجعلون الحقائق نسبية ، والنص تاريخي يفسر حسب كل عصر ، وقضية (التأويل) جاهزة لتحريف النصوص ، والذي يتظاهر بالتهذيب منهم يقول : للدين دور مهم ولكن في الروحانيات والأخلاقيات وليس في التشريع . إن التجدد الذي عنيناه هو المراجعة النقدية لواقع المسلم ، والتجدد في ثقافة المسلم وأسلوب الدعوة . ومن الطبيعي أن لا يكون تجدد إلا حول أصول ومحور وثوابت ، وهذا شيء بدهي فالثوابت من السنن الكونية والاجتماعية، فهل يتغير الضوء والهواء ، هل تغيرت أهواء النفس البشرية ، هل تتغير الأخلاق لتصبح نسبية ؟ إن قيم الصدق والعدل والعفة لا تتغير ، وكما قيل: ((لا يستطيع التغيير من لم يكن بداخله شيء عصيٌّ على التغيير)).



الدين والدنيا

كان واضحاً عند الجيل الأول (جيل الصحابة رضوان علله عليهم) أن الأمثلة التي ضربها القرآن للدنيا لا تعني تركها أو احتقارها والابتعاد عنها ، إنما الذي استقر في أذهانهم ، وعقلوه من التنزيل الكريم أن يكون التوجه الأول للآخرة ، وأن يكون الهدف الدائم للعمل هو الآخرة ، فالدنيا خادمة للدين كما قال معاذ بن جبل رض الله عنه : « يا ابن آدم أنت محتاج إلى نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج »[1] وكيف يحتقرونها وفيها يتحقق التمكين للدين ، وإقامة الشعائر والشرائع ، وفيها يكون الجهاد في سبيل الله ، فالأجيال الأولى كانت متوحدة الشخصية ، ولم يحدث الانفصام الذي طرأ بعدئذ.

ذَمَّ القرآن الغرور بالدنيا والطمع فيها ، وأن يعمل الإنسان لمجرد العمل، فيكون كالحيوان الذي يأكل ويشرب وينام ، وذَمَّ الدنيا لتنبيه الناس -وخاصة ذوي السلطان والمال- إلى أن متاع الدنيا قليل ، وأن الآخرة هي الأبقى ، حتى لا يغتر حاكم بنفوذه ، وترغيباً لأهل المال في إنفاقه.

وعندما يقول سبحانه : ﴿**زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة** ... ﴾ [آل عمران / ١٤] فهذا « تمهيد لتذكيرهم بما هو خير منها ، لا لبيان قبحها في نفسها ، فإن الله تعالى ما فطر الناس على شيء قبيح ، وكيف يكون حب النساء في أصل الفطرة مذموماً ، وهو وسيلة إتمام حكمته في بقاء النوع ، وكيف يكون

(١) ابن تيمية ، الفتاوى ، ٣٩٦/٢٨.

حب المال مذموماً لذاته ، وقد جُعل بذل المال من آيات الإيمان ... ›› [1] .

وإذا كانت الدنيا قنطرة للآخرة ، أليس من الواجب إصلاح هذه القنطرة وعدم إهمالها ، وكما قال بعض السلف : ‹‹ لا تسبوا الدنيا فنعم مطية المؤمن الدنيا إلى الآخرة ›› ويأتي ذم الدنيا أحياناً مقابل الآخرة والحديث عن الكفار ﴿**وقال الذي آمن: يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار**﴾ [غافر/٣٨-٣٩]، وقال تعالى : ﴿**يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون**﴾ [الروم / ٧] ، وقال تعالى واصفاً المؤمنين : ﴿**ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة**﴾ [البقرة / ٢٠١] ، قال الشيخ رشيد رضا : ‹‹ وهذا التقسيم لبيان ما عليه الناس في الواقع ، وبحسب داعي الجبلّة وهدي الدين ، ولا يكاد يوجد في البشر مَنْ لا تتوجه نفسه إلى حسن الحال في الدنيا ، ومن الغلو أن بعض الصوفية سمع قارئاً يتلو قوله تعالى : ﴿**منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة**﴾ فصاح : وأين من يريد الله ؟ وهو قول حسن الظاهر ، قبيح الباطن ، فالآية خطاب لخيار الصحابة ، وهو وشيخه من الصوفية لم يبلغوا مُدَّ أحدهم ولا نصيفه ، فإرادة الدنيا والآخرة بالحق إرادة لمرضاة الله... ›› [2] .

ويقول ابن كثير : ‹‹ الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي من عافية ، ودار رحبة ، وزوجة حسنة ، ورزق واسع ، وعلم نافع ، وعمل صالح ، ومركب هين ، وثناء جميل ، والحسنة في الآخرة أعلاها دخول الجنة

---

(١) رشيد رضا ، تفسير المنار ، ٣/٢٤٦.

(٢) تفسير المنار ، ٢/٢٣٨.

وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر وتيسير الحساب »[1] . ويقول الشيخ الشنقيطي تعليقاً على قوله تعالى : ﴿**وآتيناه في الدنيا حسنة**﴾ الحسنة التي آتاها الله إياها (لإبراهيم عليه السلام) الذرية الطيبة ، والثناء الحسن ، ويستأنس بـ ﴿**فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب ...**﴾.

والآيات التي تحث على الجمع بين الدنيا والآخرة كثيرة جداً، فمنها:

﴿**الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره**﴾ [الجاثية/١٢].

﴿**وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ...**﴾ [النمل / ١٤].

﴿**هو الذي أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها**﴾ [هود / ٦١].

﴿**قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق**﴾ [الأعراف / ٣٢].

فذكر الزينة في هذا المجال له دلالته الخاصة ، إذ الزينة جمال ، والجمال شيء زائد على الضرورة مثل قوله تعالى : ﴿**انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه**﴾ [الأنعام / ٩٩] فالتوجيه هنا إلى النظر ، وقوله تعالى : ﴿**فأنبتنا به حدائق ذات بهجة**﴾ [النمل / ٦٠] وقوله : ﴿**والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين**

---

(١) تفسير ابن كثير ، ١/٢٤٣.

تسرحون﴾ إلى أن قال : ﴿**والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة﴾** [النحل/٥-٨].

ومن الآيات التي تطلب الجمع بين الدنيا والآخرة :

﴿**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾** [الأنبياء / ١٠٥].

﴿**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾** [غافر / ٥١].

وذم الدنيا يكون لمن رضيها حظاً لنفسه ، وجعلها مبلغ مراده ، كما قال تعالى : ﴿**ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها﴾** [يونس / ٧] وما جاء في مدحها إنما هو باعتبار تناولها وإنفاقها على ما يُحمد . وقد جاء في الحديث « ما من مسلم غرس غرساً فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له صدقة » [(١)].

هل يطلب الفقر؟

يقول العلامة ابن الوزير : « وحيث يرد الذم على حب الدنيا مطلقاً أو عاماً ، فالمراد به : حب الحرام من الدنيا ، والإضراب عن الدين ، وأهل هذا هم الذين ذمهم الله تعالى في القرآن ، بدليل قوله تعالى : ﴿**فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق﴾** » [(٢)] . ويقول : « وقد يرتقي حب الدنيا إلى مرتبة الندب والاستحباب مع حسن النية في قصد العفاف ، وكفاية الأهل وصلة الأرحام والإخوان ، وإعانة الضعيف ،

---

(١) ابن حجر ، فتح الباري ، ١٠/٤٣٨.

(٢) محمد بن إبراهيم الوزير ، العواصم والقواصم ، ٨/١٩٠.

وإطعام الطعام ، وثبت في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في دعائه : « اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى» ولو كان الغنى نقصاً في الدين ، وحبه رذيلة لا يليق بالمؤمنين لم يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا امتنَّ الله عليه في قوله : ﴿**ووجدك عائلاً فأغنى**﴾ وقد استعاذ الرسول صلى الله عليه وسلم من الفقر، فأما حب المال الملهي عن ذكر الله والتكاثر والتفاخر فليس بمحبوب في الشرع ، وأما حديث : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً » [1] فقد فسره النووي بسد الرمق ، وليس كذلك ، وإنما القوت : كفاية الحاجة » [2] .

وإذا حدث أن اختار شظف العيش بعض من ينتصب للإرشاد وهو قدوة للناس ، ولتكون حاله عزاء للبائس والفقير ، فهذا شيء ، والأصل الذي ذكرناه من القرآن والسنة شيء آخر ، فالفقر لا يمدح أو يطلب وقد جعله الله عقوبة لبعض الأمم ﴿**وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون**﴾ [النحل / ١١٢] . وجعل الله الخير مكافأة على الاستقامة ﴿**وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً**﴾ [الجن / ١٦].

من أسباب البعد عن الدنيا :

وربما يكون ما وقع من بعض الحكام من الظلم والعسف ، ومصادرة الأموال ، مما زاد في نغمة احتقار الدنيا والابتعاد عنها إلى درجة التزهيد في

---

(١) انظر صحيح الترمذي ، ٢/٢٧٦.

(٢) العواصم والقواصم ، ٨/١٩٠-١٩٥.

الكسب والعمل ، وحمل الناس على الاعتقاد بأن الدنيا ضَرَّة الآخرة على الإطلاق ، وكان هذا ديدن الوعاظ والخطباء ، وقد رأى هؤلاء أنهم في بيئة تعج بالمآكل الحرام والملبس الحرام فزادهم نفوراً ، مما حدا بالعلماء للكتابة حول هذه الموضوعات تصحيحاً لهذا الانحراف ، وبياناً للإسلام الصحيح . فكتب الإمام محمد بن الحسن الشيباني [1] كتاب (الكسب) بيّن فيه أهمية العمل والأدلة على ذلك ، وصحح المفهوم الخاطئ عن الزراعة وأن ذَمّها إنما يكون « إذا اشتغل الناس كلهم بالزراعة وأعرضوا عن الجهاد حتى يطمع فيهم عدوهم ، أما إذا اشتغل بعضهم بالزراعة وبعضهم بالجهاد ، فهذا معاونة لبعضهم البعض »[2] وكتب أبو بكر الخلال[3] (الحث على التجارة). ولكن الصورة بقيت مشوهة بمجيء التصوف وأصبح الفقر والزهد غير الشرعي من علامات (الواصلين) و(العارفين) وكأنه انسحاب من معركة الصراع بين الحق والباطل ومن الموقع الفعال الإيجابي ، ومن موقع العلم والأمر بالمعروف والني عن المنكر، وكأنه تعويض نفسي للفشل في المغالبة ، فالدنيا عند هؤلاء المتصوفة (غرارة ، ضرارة ، أكّالة ، غوّالة) وقد قيل لبعضهم : فلان زاهد ، قال : وما قدر الدنيا حتى يُحمد من يزهد فيها ، وتحول هذا الانفصام في شخصية المسلم إلى إشكالية كبيرة ، فالزهاد يقولون له : اترك الدنيا ، والواقع يقول له غير ذلك . فلا بد من الكسب والعمل ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اليد العليا خير من اليد

---

(١) من كبار تلامذة أبي حنيفة رحمه الله ، برع في الفقه ، وقد تتلمذ عليه الإمام الشافعي والإمام أسد بن الفرات ، وله كتاب (السير الكبير) توفي عام ١٨٩هـ.

(٢) الكسب ، ص٦٤.

(٣) أحمد بن محمد بن هارون ، فقيه ، محدث ، شيخ الحنابلة في عصره ، توفي عام ٣١١هـ.

السفلى »[1]، ويقول سيد التابعين سعيد بن المسيب : « لا خير فيمن لا يطلب المال ، يقضي به دَيْنه ، ويصون به عِرضه ، ويقضي به ذمامه ، وإن مات تركه ميراثاً لمن بعده »[2] .

من آثار هذه النظرة للدنيا :

وكان من آثار ذلك أن الثروة لم تتراكم في العالم الإسلامي ، حتى يكون لها الأثر الفعال في التقدم العلمي والاقتصادي ، وهكذا ظهر العالم الإسلامي في القرن الرابع عشر الهجري خالي الوفاض من الثروات.

كان الخليفة العظيم عمر بن الخطاب يفكر في تعبيد الطرق[3]، وإنشاء المدن ، وإيصال الخير لكل مسلم في الأرض ، وهو ما يسمى اليوم (بالبنية التحتية) التي تمهد لتقدم كبير في الزراعة والصناعة ، ولكن هذا التفكير الحضاري لم يستمر ، ولم تتابع إصلاحات هارون الرشيد الزراعية والمالية[4]، وسيقال إن الغزو التتري والصليبي قد خرب عمران العالم الإسلامي ، وهذا جزء من الحقيقة ، لأن الدول الإسلامية كانت قد ضعفت سياسياً واقتصادياً قبل هذا الغزو ، جاء في شذرات الذهب : « ويقال أن المنصور (العباسي) خلف في الخزائن مئة ألف ألف (مئة مليون) دينار ، وستين ألف ألف درهم، ففرقها المهدي ، ولم يل الخلافة أحد أكرم منه ،

---

(١) انظر : فتح الباري ، ٣/٢٣٥.

(٢) أبو بكر الخلال ، الحث على التجارة / ٨٠.

(٣) حتى للحيوانات ، كما ورد عنه رضي الله عنه : لو أن شاة عثرت على شط الفرات لخشيت أن يُسأل عنها عمر.

(٤) ألف القاضي أبو يوسف كتاب (الخراج) نتيجة طلب وأسئلة من الخليفة الرشيد.

ولا أبخل من أبيه » [١] ، الخليفة الحازم المدبر لأمور الدولة يُسمى بخيلاً عند هذا المؤرخ وفي العرف العام ، وأما الذي فرّق الأموال وترك الخزينة فارغة فيسمى كريماً ، وبهذه العقلية صار المسلمون كما قال تعالى : ﴿**ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً**﴾ . وكان من آثار هذه النظرة للدنيا أن ضعف أيضاً طلب العلوم الطبيعية كالرياضيات والطب والفيزياء والكيمياء ، ويكتب أحد الشيوخ في العصور المتأخرة يذم علم الحساب وتقويم البلدان حتى فاجأنا الغرب بتفوقه العلمي . ومن العجيب أن تستمر هذه الإشكالية حتى يومنا هذا ، فنرى تحقيق ونشر كتب الزهد التي كتبت في عصر معين ولظروف معينة ، وربما تكون رأي خاص لصاحبها ، فلماذا هذا الحرص على نشر هذا النوع من الكتب [٢] وعندما يقال : نحن نهتم بهذه الكتب حتى نخفف من الشره المادي والطمع عند الناس ، وعبادة الدرهم والدينار كما جاء في الحديث ، ونقول : نعم ، هذا طيب ، والمسلمون بحاجة لمثل هذا التذكير ، ولكن المرض لا يعالج بمرض مثله ، بل يعالج بالقرآن والسنة وحياة خير الأجيال ، وفهم العلماء المحققين الذين يدركون أبعاد هذا الموضوع . وعندما نسمع قوله تعالى : ﴿**إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء**﴾ نعلم أن كل ما تشكوا منه البشرية من الشقاء والأمراض الاجتماعية ، والحروب الدولية ، إنما سببه التنافس في متاع الحياة الدنيا ، فالتزام القصد والاعتدال في الحياة الدنيا ، وصرف الهم لإعلاء كلمة الله هو الطريق الصحيح « وليس من هدي الإسلام أن يترك المسلمون الدنيا ومعايشها وسياستها ، ويكونوا فقراء أذلاء ، تابعين للمخالفين من الأقوياء ،

---

(١) ابن العماد ، شذرات الذهب ، ٣٠٦/٢ ، دار ابن كثير ، دمشق.

(٢) انظر تحقيق كتاب (الجوع) لابن أبي الدنيا !!

ولا أن يكونوا كالأنعام، لا هَمَّ لهم إلا في شهواتهم البدنية »[1] .

نظرة الإسلام للمال :

جمع الغرب في القرون الأخيرة ثروات هائلة ، جمعها بطرق صحيحة كالتجارة والصناعة ، وبطرق غير صحيحة من السلب والنهب من ثروات آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية ، ثم استثمر هذه الثروات ، وأقام دنيا قوية من صناعة ومؤسسات عملاقة ، جعلته يتغلب على بقية الناس ، ويتسلط على المسلمين.

لم يطلب الرسول صلى الله عليه وسلم من عبد الرحمن بن عوف أو من عثمان بن عفان رضي الله عنهما أو غيرهم من أصحاب الثروة من الصحابة لم يطلب منهم ترك أموالهم ، أو حثهم على عدم تثميرها، وقد توفي الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وهم أصحاب الملايين ، وكان الصحابة كما قال الشاطبي: « بين عامل في سوقه، وعامل في أرضه، ومسافر يبتغي فضل الله ، وكان الغنى من مقاصدهم ، والتكسب من شأنهم »[2] .

اهتم الإسلام بموضوع المال ، وسماه القرآن خيراً ، وركز على وظيفته الاجتماعية ، وأصبح للمسلمين مفهوم خاص للثروة وكيفية جمعها وإنفاقها وأصبح المجتمع الإسلامي مجتمع متحضر يكفل الفرد ويحيطه بالرعاية ، وليس من الإسلام في شيء أن يتحول المسلمون إلى أصحاب الحظ الأدنى وأصحاب اليد السفلى، وإن السّرف وعدم الاهتمام بالمال لا يصلح عليه دين ولا دينا ، ﴿**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل**

(١) رشيد رضا ، تفسير المنار ، ١/١١٨.

(٢) ابن الأزرق ، بدائع السلك في طبائع الملك ، ٢/٣٩٨.

البسط﴾ وقد قال يوسف عليه السلام لصاحب مصر: **﴿إني حفيظ عليم﴾**، « فقد طلب أهم ما يتوقف عليه إدارة الملك وسياسته ، وتنمية العمران ، وإقامة العدل فيه ، وما أضاع ملك المسلمين وغيرهم من الشرقيين في هذه القرون الأخيرة إلا الجهل والتقصير في إدارة النظام المالي وتدبير الثروة وحفظها ، سواء في ذلك الدولة والأمة » [1] .

في العصر الحديث :

كان من آثار هذه النظرة (للمال) والاقتصاد بشكل عام أن الذين يتحدثون عن النهضة الإسلامية اليوم لم يعيروا القضية الاقتصادية اهتماماً كبيراً ، بل إن الحديث عن الثروة والمال يثير عند كثير منهم شكوكاً تجاه المتحدث ، ويخشون أن يقع في التفسير المادي للتاريخ يذكرهم بـ (ماركس) و(لينين) في تحليلاتهم المادية ، بل إن بعضهم وفي غمرة محاربتهم للشيوعية الماركسية سكتوا عن الظلم الاجتماعي الواقع في بلدانهم ، وسكتوا عن تبديد الثروة ، ونهب الثروة من قِبل الأعداء ، وتحولوا إلى مدافعين -دون أن يشعروا- عن النظم الرأسمالية ، بل اشتط بعضهم حين وصف الاقتصاد الإسلامي بالفردية البحتة.

إن قضايا الاقتصاد ليست مقصورة في الحديث عن الربا وشروره ، ولا عن (العولمة) ومشاكلها ، وإنما هو حديث يبدأ من اهتمام المسلم بكل مسألة وكل قضية في حفظ (المال) وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وينهاكم عن إضاعة المال »[2] إنه اقتصاد المنزل والأسرة

---

(١) رشيد رضا ، مجلة المنار ، ١٧/٣٥.

(٢) وفي معجم الطبراني الكبير : « ما عال من اقتصد » (حديث رقم ١٠١١٨).

والمجتمع والدولة ، اقتصاد التدبير وعدم الإسراف والتبذير ، اقتصاد التعاون وتجميع الثروة واستثمارها وإن من أخطر الأمور أن يظهر وكأن هناك انفصالاً بين الإسلام والاقتصاد، وما هي إلا علمانية مبطنة ، وهل يريد هؤلاء الذين يعمقون هذا الاتجاه أن نبقى في مؤخرة القافلة نستجدي الدول الغنية والقوية ، إن معدل دخل الفرد في العالم الإسلامي من أدنى المعدلات في العالم ، ليس لأنه الأفقر أو الأقل ثروات وقدرات بشرية ، بل بسبب سوء توزيع الثروة وبسبب الارتهان للغرب ولصندوق النقد الدولي.

وإن بقاء مثل هذا الأوضاع يترتب عليها مساوئ اجتماعية وخلقية، وانتشار الأثرة ، وتفكك البنى الاجتماعية.

إننا بحاجة لأن نشق لنا طريقاً وسطاً في هذا الزحام العالمي ، وفي هذا السباق العالمي المملوء بالشره وظلم الإنسان ، إننا بحاجة إلى (المسلم الاقتصادي).



دروس التاريخ

هل يستفيد الناس من التاريخ ؟ هل يرجعون إلى الماضي لمعرفة الحاضر؟ وهل هناك فعلاً دروس من التاريخ أم هو كلام إنشائي لا رصيد له في الواقع.

إن بعض من كتبوا في هذا الشأن لا يرون فائدة تذكر من قراءة التاريخ ، لأن الحوادث لا تتشابه ، فلكل حادثة ظروفها المحلية وأسبابها الخاصة ولا تقارن بحادثة سابقة ، ويقولون : نحن نرى الطغاة من الحكام لا يعتبرون بما وقع لأمثالهم فيما مضى ، وكيف قصمهم الله ، وأكبّهم على وجوههم ، وكيف عاش بعضهم في العصر الحديث شريداً طريداً ، فلماذا لم يتخوفوا من المصير نفسه ، واستمروا في غيّهم سادرين ؟ لماذا لم يتذكر الخليفة العباسي هارون الرشيد ما وقع فيه بنو أمية من الخطأ عندما قرروا البيعة لاثنين من أولادهم ، ووقع في الخطأ نفسه . هل نظرت الحركات الإسلامية المعاصرة أو التفتت إلى الوراء قليلاً لترى كيف أخطأت حركات مثلها ، وكيف استُجرت لمعارك لا طاقة لها بها ، والأمثلة كثيرة فهل هذا يعني أن لا فائدة من قراءة التاريخ ، فتقول لو أن الأمر كذلك لما قصَّ الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم قصص الأنبياء السابقين ، وما جرى لهم مع أقوامهم، ولا ذكر سبحانه وتعالى ما حَلَّ بالذين بطروا معيشتهم وكفروا بأنعم الله من العذاب ، والآيات القرآنية تعقب بعد ذكر القصص : **﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾** [يونس/٣٩] وقد احتج المتأخر من الرسل على قومه بما وقع لمن قبله **﴿ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم**

بعيد﴾[هود/٨٩] والآيات التي تتحدث عن مصائر الماضين كثيرة ﴿**ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد**﴾ [هود / ١٠٠] ﴿**فاقصص القصص لعلهم يتفكرون**﴾ [الأعراف / ١٧٦] ﴿**أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم**﴾ [غافر / ٨٢].

وعندما يأمر القرآن بالتفكر والتدبر ، فإنما يطلب المقارنة والقياس يقول ابن عطية : « ثم أحالهم في علم ذلك على الطلب في الأرض واستقراء الأمم ، والوقوف على عواقب الكافرين » [١]، وتأخذ القصص في القرآن حجماً كبيراً « لتوجيه الأنظار إلى الاعتبار بأحوال الأمم في كفرهم وإيمانهم، وشقاوتهم وسعادتهم ولا شيء يهدي الإنسان كالمثلات والوقائع » [٢] .

من الذي يستفيد من التاريخ :

وإذا كان الأمر كما ذكر القرآن فإن السؤال يبقى حاضراً : لماذا لا يستفيد كثير من الناس من التاريخ ؟ والجواب سنجده في القرآن أيضاً ، قال تعالى : ﴿**وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين**﴾ [هود/١٢٠]، ﴿...**يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ، فاعتبروا يا أولي الأبصار**﴾ [الحشر/٢] فالذي يعتبر ويستفيد هم : أولوا الأبصار وهم المؤمنون وهم : العالمون ، ﴿**وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون**﴾ [العنكبوت/٤٣] فأصحاب العقول الراجحة ، والقلوب السليمة هم الذين يعلمون كف تنهض الأمم، وكيف تَسْفُل وتعيش الضنك والعذاب حين تبتعد عن رسالة الله ، والذين لا يملكون هذه المقومات لا يستفيدون ولا

---

(١) تفسير ابن عطية ، ٤١٣/٨ ، ط وزارة الأوقاف ، قطر.

(٢) تفسير المنار ، ٦٧/١.

يعتبرون ، فأجهزة التلقي ﴿**السمع والبصر والفؤاد**﴾ معطلة عندهم ، لا يستخدمونها كما أمر الله.

إن الذين يعيشون حياة مادية يظنون أن كل ما يقع في الحوادث الكونية هو من فعل (الطبيعة) ويمكن أن يحدث في كل مكان وزمان ، وليس لله فيه مشيئة ، فأنّى لهؤلاء أن يعتبروا أو يذّكروا !

وأهل الغرب من نصارى أوربا وأمريكا إذا جاءتهم عواصف مدمرة أو أمراض فتاكة لا يخطر ببالهم أن هذا عقوبة من الله ، كما جاء في القرآن الكريم حكاية عن الكفار عندما يأتيهم الضراء أو السراء ﴿**وقالوا قد مَسَّ آباءنا الضراء والسراء**﴾ [الأعراف / ٩٥] « أي تلك عادة الزمان يمسنا مثل ما مسَّ آباءنا ، فلا الضراء عقاب من الخالق الحكيم ، ولا السراء جزاء منه على صالحات تعمل » [١] وأهل الغفلة والمتعالمون في عالمنا الإسلامي قلما يفكرون في أسباب هذا الضعف وهذا التسلط من الظلمة ، وأنه بسبب ابتعادهم عن الدين وكثرة ذنوبهم ورضاهم بالهوان ﴿**ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون**﴾ [الروم / ٤١].

أهمية التاريخ :

لا يستفيد من التاريخ مَنْ لا يقدّر أهمية التاريخ « فالأمم التي لا تقرأ تاريخها معرضة لإعادة إنتاجه لغير صالحها » [٢] يقول الشيخ رشيد رضا

---

(١) تفسير المنار ، ٩/١٦.

(٢) محمد جابر الأنصاري ، العرب والسياسة / ٥٥ ، والعبارة لـ : جورج سانتيانا.

معاتباً المسلم لعدم اهتمامه بهذا الموضوع : «فما لك لا تعد من هذا الدين معرفة تواريخ الأمم الغابرة ، واختبار أحوال الأمم الحاضرة ، ومعرفة الأقطار والبقاع ، والعلم بشؤون الاجتماع ، أليس هذا من إقامة القرآن ، واستعمال الفرقان والميزان ... » [1] وقد سبقه العلامة ابن خلدون في التنويه بشأن هذا العلم ، يقول : « إذ هو (التاريخ) في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأول ، وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات (الحوادث) ومباديها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق... »[2] . ولأهمية التاريخ اشتغل به أمثال الطبري وابن إسحاق وابن سعد ، وقيل عن الشافعي : كان عالماً بأيام الناس ، وكان الصحابة على علم بتاريخ وجغرافية البلدان المفتوحة « ولم يزالوا والتابعون من بعدهم يتفاوضون في حديث من مضى ، ويتذاكرون ما سبقهم من الأخبار وانقضى » [3] .

إن الأمة التي تعيش دون تاريخ ، تعيش دون ذاكرة ، كما قال شوقي:

مثل القوم نسوا تاريخهم	كلقيط عَيَّ في الحيّ انتساباً
أو كمغلوب على ذاكرة	يشتكي من صلة الماضي انقضاباً

إن تاريخنا الإسلامي تاريخ عميق الجذور ، لأنه مرتبط بسير الأنبياء وبعد الرسول صلى الله عليه وسلم أصبح تاريخ علماء ، فالأمة الإسلامية

---

(١) مجلة المنار ، ١٠/٧.

(٢) المقدمة ، ١/٢٨٢.

(٣) أبو شامة ، الروضتين في أخبار الدولتين ، ١/٢.

ارتفعت بفكرها إلى أن جعلت أقوال العلماء وأفعالهم هي الجديرة بالتسجيل وهذا اتجاه أصيل لم تُسبق إليه. وفي هذا الجانب ظهرت كتب (الطبقات)[1]: طبقات الصحابة ، طبقات التابعين ، طبقات الفقهاء والمحدثين ... فالتاريخ الحضاري عندنا تفوق على التاريخ السياسي ، وبسبب العناية به ظهر آلاف من المؤرخين « وظهر ما يزيد عل عشرة آلاف كتاب في التاريخ »[2] وما ضعف الاهتمام بالتاريخ إلا في العصور المتأخرة حين ابتعدت الأمة عن القيادة والسياسة ، وأهمية التاريخ وأثره في تربية الشعوب لا ينكره إلا مغرض ، أو ليس عنده إحاطة بهذا العلم.

الماضي والحاضر:

إن لغز الحاضر لا يُحل إلا بوعي تاريخي بالماضي « فالماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء » [3] وكلما كانت النظرة إلى الماضي أكثر شمولاً كان فهم الحاضر أشد عمقاً ، إن الذي يريد معرفة عقلية الغربي اليوم لا بد أن يقرأ تاريخ العلاقة بين المسلمين وأوربا خلال القرون السابقة ، وقد يستغرب بعض الناس تصرفات الدول أو الحكام في هذا العصر ولو رجعوا للتاريخ لزال هذا الاستغراب « ويحتاج صاحب هذا الفن (التاريخ) الإحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب في الوفاق أو بون ما بينهما من الخلاف حتى يكون مستوعباً لأسباب كل حادث » [4] .

---

(١) التي تؤرخ وتترجم للأشخاص حسب الأجيال ، وهو فن إسلامي بحت.

(٢) شاكر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون ، ١/٧.

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ١/٢٩٢.

(٤) المصدر السابق ، ١/٣٢٠.

وإذا كنا نتعجب من مثقفي الغرب وكيف يسخرون علمهم لمصلحة الهيمنة والسيطرة على الشعوب الأخرى ، إذن فلنقرأ كيف كان الفيلسوف (ليبزيج) يقدم المشاريع لحكومات الغرب لتقسيم العالم الإسلامي [1] .

وكيف أن المستشرق الفرنسي (سيلفستر دي ساي) « هو الذي حرر إعلان (بونابرت) الذي ألقاه بعد غزومصر ، و (ماكس مولر) أحد أهم رجالات الاستشراق كان يحاضر في كامبردج لإعداد حكام الهند من الإنجليز، ومدام (روس بينيديكيت) كتبت (السيف والأقحوان) حول اليابان طبقاً لأوامر وزارة الحربية الأمريكية لإدخال نظام السياسة الأمريكية إلى اليابان » [2] .

عندما نعود للماضي في تاريخنا فلأننا لسنا أمة منقطعة ، بل عريقة وعميقة الجذور ، وإعادة الماضي تعني تصوره وكأنه حي بيننا لنستوعبه ونستفيد منه ، ثم لنتجاوز الأخطاء ، ولا تعني الاستغراق فيه أو اتخاذه تحفة فنية ننظر إليها ونتعجب من دقة صنعها ، فالاستغراق في الماضي يجعل المسلم غريباً عن الحاضر ، والمنهج القرآني في التزكية هو كما قال تعالى ﴿**تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون**﴾ بينما نرى المبتدعة من أهل الجهل والشنآن يقفون عند حادث معين قد مضى وانقضى يعيدونه (كحمار الرحا) ليزيدوا في الحقد عند المغفلين والبسطاء . المنهج القرآني يقول : خذوا العبرة وامضوا في طريقكم ، وانظروا ما الذي ينفعكم في دنياكم وآخرتكم .

---

(١) انظر التعصب الأوروبي أم التعصب الإسلامي للمؤلف / ١٠٩ .

(٢) جارودي : أمريكا طليعة الانحطاط / ١٧٩، دار الشروق ، القاهرة.

اهتم المسلمون في القرنين السادس والسابع الهجريين اهتماماً بالغاً بالسيرة النبوية ، وأعادوا كتابتها ، وذلك بسبب المحن التي تعرضوا لها في غزو التتار والغزو الصليبي ، وقد تكالب على المسلمين اليوم النظام العالمي الجديد ، فهل يعيدون قراءة التاريخ؟.

الواقع أن ثقافة المتعلم من أجيال المسلمين المعاصرة ضئيلة بالمقارنة مع الشعوب التي ما تفتأ تعيد قراءة تاريخها الذي لا يذكر أمام التاريخ الإسلامي، اليهود يوظفون التاريخ لبناء مشروعهم الصهيوني على أرض فلسطين ، ويحاول زعماؤهم انشاء (الذاكرة الجماعية) لشعب يهود ، ذاكرة قصصهم السابقة واضطهادهم ، وبطولاتهم المزعومة وفي الوقت نفسه محو كل شئ يتعلق بتاريخ فلسطين وأجيال المسلمين في فلسطين .

قواعد التاريخ :

في مجال الوعي بالتاريخ ، هل نستطيع استنباط دروس ثابتة وقواعد مستقرة ، تساعدنا على معرفة الواقع أو استقراء المستقبل القريب ؟ مع العلم أن التاريخ ليس علماً كالعلوم الطبيعية مثل الفيزياء أو الكيمياء ، ومن الصعوبة وضع العلوم الإنسانية في قوالب رياضية . إذا رجعنا إلى القرآن الكريم نجد أنه تحدث عن (السنن) التي تحكم المجتمعات في رقيها أو هلاكها، ففي التعقيب على قصة نوح عليه السلام ذكر القرآن قاعدة من أعظم قواعد التاريخ ، قال تعالى ﴿**فاصبر إن العاقبة للمتقين**﴾ « فهي الأساس الأعظم لفوز الجماعات والأمم في مقاصدها وغلبها على خصومها، ومعنى المتقين هنا الذين يتقون أسباب الضعف والخذلان والتنازع والفساد في الأرض والظلم ، ويأخذون بأسباب ما تقوى به الأمم في الأخلاق والأعمال

وأعلاها الاستعانة بالله ، والصبر على المكاره مهما عظمت ، وقد تكررت هذه القاعدة في القرآن الحكيم ﴿**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون**﴾» [(١)]. ومن السنن المذكورة في القرآن -وهي من قواعد التاريخ- أن ذنوب الأمم لا بد من العقاب عليها في الدنيا قبل الآخرة ، مثل كفر النعم ، والبطر والأشر ، والإسراف والفجور ﴿**ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون**﴾ [الأعراف/٩٦] وذنوب الأفراد ليست كذنوب الأمم فَسُنته سبحانه وتعالى في الأمم لا تتبدل ولا تتحول .

ومنها : أن التاريخ ليس محايداً ، فالأشرار يجب أن يدانوا ويبين حالهم. وقد أدان القرآن فرعون وحكم عليه بالفساد ﴿**وإن فرعون لعال في الأرض ، وإنه لمن المسرفين**﴾ [يونس/٨٣] ﴿**إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين**﴾ [القصص/٨] وقد استنبط علماء المسلمين من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم أن تشبه المسلمين باليهود والنصارى وغيرهم من الأمم[(٢)] من علامات الانهيار والهزيمة . يقول ابن تيميه: « وهذه المشابهة لليهود والنصارى وللأعاجم من الروم والفرس لما غلبت على ملوك الشرق ، ودخلوا فيما كرهه الله ورسوله سلط الله عليهم الترك الكافرين ، حتى فعلوا في العباد والبلاد مالم يجر في دولة الإسلام »[(٣)]. ويقول ابن خلدون عن حال المسلمين في الأندلس في أيامهم الأخيرة « فإنك تجدهم يتشبهون بهم

(١) رشيد رضا : تفسير المنار ، ٩/٥٧٧.

(٢) المقصود مشابهتهم فيما يضر في الدين ، كالتشبه بهم في العقائد والأخلاق والعادات الذميمة ، وليس التشبه بكل حال ، مثل الاستفادة من أمور دنيوية بحتة.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم / ١١٨.

(الكفار) في ملابسهم وشاراتهم ، حتى في رسم التماثيل في الجدران حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء والأمر لله » [1] .

حاول بعض الباحثين الغربيين استخلاص بعض القواعد من خلال قراءة التاريخ فذكروا منها :

١- لا يمكن ظهور دعوة إصلاحية أو تجديدية دون أن تثير قوى معارضة ، لها مصالح مرتبطة بالوضع القائم لا تريد تغييره .

٢- لا يحدث التغيير المطلوب ، وإبعاد أنظمة فاسدة طاغية إلا إذا كانت هذه الأنظمة قد اعتراها الوهن والضعف من داخلها[2].

٣- أي تحالف مع منظمة ديكتاتورية ، فإنها ستجعل المتحالف معها، مخلب قط لأغراضها .

مواقف تاريخنا :

أولاً : من الأحداث البارزة في تاريخنا مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وما أعقب ذلك من اقتتال داخلي، وهو ما اصطلح عليه بـ (الفتنة). فهذا الحدث كان زلزالاً هَزَّ كيان المسلمين ومصيبة فادحة أرّقتهم وفجأتهم بحجمها وآثارها ، وكان العصر عصر خلافة راشدة على منهاج النبوة ، عاش الناس في ظلها في أمن وعدل ورخاء ، ونشر للدعوة وانفساح في الأرض . كانت الحادثة مؤلمة وغير متوقعة أصابت الناس

(١) المقدمة ، ٥١١/٢.

(٢) تكلّم ابن خلدون عن هذا الموضوع ، وأضاف شرطاً آخر ، وهو أن يكون المطالب حسب تعبيره قوياً إلى درجة كافية.

بالذهول وكان بعدها تفرق وتمزق . لقد قُتل عمر رضي الله عنه ولكن الذي قتله كان أعجمياً كافراً ، وكانت مؤامرة خارجية ، ولكن أن يقتل عثمان رضي الله عنه بأيدي المسلمين ، وفي مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي شهر ذي الحجة ، فهذه هي الفتنة الكبرى .

إن حادثة بهذه الخطورة ، وبهذه العوامل المتداخلة تحتاج إلى دراسة معمقة ، فهي من المفاصل الكبرى في التاريخ الإسلامي.

إن الذين تولوا كبر هذه الفتنة ناس من أوباش القبائل ، تأثر كثير منهم بدعاية اليهودي ابن سبأ الذي ادعى الإسلام وجاب المناطق مؤلباً على عثمان رضى الله عنه بطريقة ذكية وخبيثة ، مظهراً للأمر بالمعروف ، داعياً إلى علي رضي الله عنه -بزعمه- وأن علياً هو الوصي بعد الرسول صلى الله عليه وسلم كما كان هارون وصيّ موسى عليهما السلام . وراجت بضاعته عندهم ، وخدعهم عن أنفسهم ، وكانوا قبل هذا قد رجعت إليهم عصبيتهم الجاهلية ، فحقدوا على قريش توليها أمر الخلافة ، وبطروا معيشتهم بعد تلك الفتوحات وبعد تدفق الغنائم ، ولم يعايشوا الصحابة فتتهذب نفوسهم وتلين قلوبهم ، ولم يتأدبوا بآداب الشرع ، ويسترشدوا أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم التي تأمر بطاعة الحاكم المسلم الذي يقيم شرع الله ولو كانت له أخطاء ، فكيف إذا كان من الراشدين المبشرين بالجنة ؟

وقد أطمعهم لين جانب الخليفة وكرم أخلاقه ، فلم يشكروا هذه النعمة ويحمدوا الله عليها ، بعد أن كانوا في الجاهلية ، رعاة إبل يأكلون (العلهز)[1] وأبت عليهم نفوسهم الضئيلة إلا أن يتطاولوا على مكانة

---

(١) الدم المخلوط بالوبر ، يأكلونه عند المجاعة.

الصحابة، فعجوا عجيج (العتدان)[1] كما وصفهم الصحابي حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، وسوف يتمنون الرجوع إلى ما هم فيه فلا يرده الله عليهم.

قد يكون في جموع هؤلاء المتألبين قلة قد غُررّ بهم ، وظنوا أنهم يمارسون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لكثرة ما سمعوا من النقد لعثمان رضي الله عنه ، فيظن الواحد منهم لجهله أن مصلحة الدين تقتضي عزل عثمان أو قتله ، وهم صنف من الناس قليل الدين ضعيف العقل ، فيهم نزق لا يهدأ لهم بال حتى ينفذوا ما توسوس لهم نفوسهم [2] .

لم يدخل هذه الفتنة صحابي أبداً . أما ما كان من رأي أبي ذر رضي الله عنه وانتقاداته حول جمع المال أو كنزه ، فهو اجتهاد خاص به لم يوافقه عليه بقية الصحابة ، ومن ثمَّ فقد استأذن عثمان ليسكن بعيداً عن المدينة فأذن له ، ولم يكن ممن يحرض أو يؤلب على خليفة المسلمين . والسؤال الذي يبرز هنا ، كيف تسنى لرجل يهودي تظاهر بالإسلام أن يسعى بالفساد هذا السعي ، وأن يخترق الصف الإسلامي[3] ؟ إن المجتمع المسلم يومها مجتمع مبني على الحب والإخاء ، وعلى طهارة القلب والنفس ولم يألف هذه المكائد والألاعيب ، والقبائل التي أسلمت حديثا لم تتعمق في فهم هذا الدين ، ولم تتدبر ما حدث به القرآن عن دسائس اليهود ، وأساليب النافقين ومكرهم . وكأن المسلمين كانوا بحاجة إلى مثل فقه عمر

---

(١) العتدان : جمع عتود ، وهو (الجدي) من صغار الماعز ، الذي استكرش يظن أنه أصبح كبيراً.

(٢) كما يغرر الآن ببعض الشباب ، فيقتلون دعاة وعلماء ويظنون أنهم يحسنون صنعاً ، كما وقع في أفغانستان والجزائر.

(٣) لم يجد ابن سبأ موطىء قدم له في الشام حيث اكتشفه الصحابي أبو الدرداء ، وطرده من الشام.

رضي الله عنه وحذره ، ومعرفته بالأعداء وتفاصيل سبيل المجرمين ، وهو الذي قال : « ينقض الإسلام عروة عروة ، من نشأ في الإسلام ولم يعرف الجاهلية » وهو الذي قال لعبد الله بن عباس رضي الله عنه حين علم أن الذي طعنه في صلاة الفجر هو أبو لؤلؤة المجوسي قال : « هذا من عمل أصحابك كنت أريد أن لا يدخلها (المدينة) علج من السبي، فغلبتموني »[1].

ولذلك قال عبد الله بن مسعود معلقاً على وفاة عمر : « لقد ذهب بتسعة أعشار العلم » وأظن أن من هذا العلم فراسة عمر ومعرفته بمكائد الأعداء.

كيف غاب هذا الفقه عن المسلمين وهم يرون أن كثيراً من زعماء الفرق مغموص عليه في دينهم ، ولهم طرق ملتوية بعيدة الغور في الهدم . فهذا بشر المريسي وهو من رؤوس المبتدعة الذين أطلقوا القول بخلق القرآن، وكان من المحرضين على أهل السنة وشيخ أهل السنة يومها الإمام أحمد بن حنبل ، وكانت المحنة زمن المأمون العباسي، المريسي هذا كان أبوه يهودياً ، قال المروزي: سمعت الإمام أحمد وذكر المريسي فقال: « كان أبوه يهودياً ، أي شيء يكون » [2] .

وسلسلة أمثال ابن سبأ والمريسي تطول في التاريخ الإسلامي فقد كان الناس في ريب من نسب العبيديين (الدولة الفاطمية) الذين يدّعون الانتساب لآل البيت ، وقد سئل أحد ملوكهم وهو معد بن اسماعيل الذي يلقبونه بـ(المعز لدين الله) ، سئل عن نسبه ، فنثر الدنانير وقال : هذا نسبي ، ومن

---

(١) ابن سعد ، الطبقات ، ٣٥٢/٣.

(٢) سير أعلام النبلاء ، ١٩٩/١٠.

لم يرض فهذا حسبي وأشار إلى السيف ، فلماذا لم يذكر نسبه صراحة وهو الحاكم ودولته قوية ، ولا يخاف أحداً ، وقد تخلوا عن الدعوة السرية كما يقولون؟ ألم ينخدع المسلمون بـ (أتاتورك) حين قال شاعرهم (يا خالد الترك جدد خالد العرب) مع أن أصول أتاتورك من (سالونيك) التي عشش فيها اليهود، ولما تمكن من رقاب المسلمين حارب الإسلام حرباً لا هوادة فيها.

ثانيا : الزحف البطيء

كان الفتح الإسلامي في زمن أبي بكر وعمر معجزة باهرة ، وكان انسياحاً في الأرض ليغمرها برحمة الإسلام وعدله . وكانت الخلافة الراشدة نظاماً جديداً لم تألفه البشرية من قبل . فالأنظمة المجاورة قام فيها الحكم على القهر واستعباد الشعوب ، وعلى نظام الطبقات ، وبعد الفتح ودخول هذه الشعوب في الإسلام فوجئوا بأن لا فرق بين أبيض وأسود أو بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى ، وأن الناس أحرار ، وهذا انقلاب تحتاج معه هذه الشعوب لتربية طويلة حتى تترسخ هذه المفاهيم في عقولهم ، فهذه النقلة البعيدة ربما تؤدي إلى (خلخلة) في الصف ، إن لم تتدارك بالتربية .

إن هذه الشعوب تحمل تراثاً وأغلالاً من العقائد الفاسدة والعادات والآداب المحلية ، وقد استمرأوا تقديس الحكام ، فمثل هؤلاء إذا لم ينصهروا بالتربية والقدوة فربما عاودهم الحنين إلى ما كانوا عليه ، كما فعل بنو إسرائيل عندما بادروا لعبادة العجل تقليداً لأسيادهم السابقين (الفراعنة) وقد أخرجهم موسى عليه السلام من طور الذل إلى طور العزة والكرامة ، ولكن تغلبت عليهم طبيعتهم .

لا يعني هذا التوقف عن الفتوحات ونشر الإسلام ، وإنقاذ الناس من الكفر ، ولكن لا بد مع جيوش الفتح من جيوش الدعاة والعلماء ، كما أرسل عمر رضي الله عنه معلمين إلى المناطق الكبرى . فبعث عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وسلمان الفارسي إلى العراق ، وبعث أبا الدرداء وعبادة بن الصامت ومعاذ بن جبل إلى الشام ، ولو تعارض الفتح مع ترسيخ الإسلام لأخرنا الفتوحات حتى تتعلم هذه الشعوب دينها الجديد . وقد كان عمر رضي الله عنه بفراسته ، يتخوف من المشرق أن يأتي منه الطامات قبل أن يتهذب ويستقر فيه الإسلام ، ويقول : « وددت أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار ، لا يصلون إلينا منه ، ولا نصل إليهم » [1] .

ولا شك أن المحافظة على رأس المال خير من المخاطرة غير المأمونة . إن نقل الناس من الكفر إلى الإسلام وتطهير الأرض من الشرك والوثنية فيه خير كثير ، ولكن إذا لم يصاحب ذلك صهر في بوتقة الإسلام ، فربما تعود هذه البلاد المفتوحة بالنقض على الأصل والأساس ، فتكون وبالاً على المسلمين . وإذا أعطيت هذه الشعوب من الحرية والكرامة ما لم تكن تتوقعه، فإنها تبطر هذه النعمة ، ولهذا كانت الفتن الكثيرة في المشرق التي حذر منها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا ما أدركه الخليفة عمر بن عبد العزيز حين أقفل المسلمين عن حصار القسطنطينية ، إذ وجد أن ذلك سيفني الجيش الإسلامي ، وحين قال لبعض أمرائه على الولايات : إن الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه جابياً ، وحين أرسل مع واليه على شمالي أفريقية عشرة من الفقهاء يعلمون الناس ، وهذا ما فهمه شيخ الإسلام ابن تيميه حين رأى أن تعليم المسلمين أمور دينهم والمحافظة عليهم خير من جلب عناصر جديدة.

---

(١) الطبري ، ٤/٧٩.

افتتحت الدولة العثمانية أقاليم كبيرة في أوروبا ، ولكنها لم تستطع -مع طول مكثها- أن تستوعب هذه الشعوب ، وتدخلها في دائرة الإسلام، عدا مناطق قليلة مثل ألبانيا والبوسنة ، لم تجند الدولة جيوشاً من الدعاة ، فكان مقتلها وبداية النهاية من هذه الشعوب السلافية البلقانية .

ومن الأخطاء التي وقعت فيها بعض الدعوات في العصر الحديث اهتمامها بالتجميع أكثر من اهتمامها بالتربية وصقل الأفراد ، كما نلاحظ في بعض المناطق اهتماماً بإدخال عناصر جديدة في الإسلام أكثر من الاهتمام بتعليم المسلمين أمور دينهم ، ولا يعني هذا -أيضاً- ترك الدعوة في صفوف غير المسلمين ، فهذا لا بد منه ، ولكن إصلاح البنيان من الداخل أولى وأفضل.

دروس التاريخ كثيرة ، وأصحاب الألباب هم الذين يستفيدون منها وهم الذين يجدون في الأحداث القريبة والبعيدة ما يزيدهم تجربة وحكمة ورؤية صادقة .



السياسة

مفاهيم ومواقف

لا يُعنى هذا المقال بالحديث عن السياسة بمفهومها الشامل وأصولها وتفريعاتها ، فهذا له كتب لا مقالات ، وإنما أردت التنبيه إلى أمرين : أحدهما ، إزاحة الستار عمّا غشي هذا المصطلح من ظلال قاتمة ، والثاني: موقف بعض الإسلاميين من السياسة وخاصة الذين يُفترض أن يكونوا قادة الناس .

إن هذه الكلمة (سياسة) لا تلقى كثيراً من الترحاب في مجتمعاتنا المعاصرة ، فهي في مخيلتهم مرادفة للكذب والمخاتلة والنفاق الاجتماعي ، والسياسي المحنك عندهم هو الذي يتقن فَنَّ تجميع الأنصار أو فَنَّ التآمر على الخصوم ، أو يكون مِن الذين يخدعون الجمهور بوعوده الخلابة ، فشعوبنا توصف بأنها تحب الوعد القريب الكاذب ، ولا تحب الوعد البعيد الصادق. وقد تعني السياسة فيما تعنيه عند هؤلاء الدخول في أمور لا تجلب إلا المتاعب ، هذا ما دعا البعض أن تعوذ من السياسة ومن فعل : ساس ويسوس وكل مشتقاته « وهموم السياسة يتم التلميح إليها بكل المهارات التعبيرية غير المباشرة وكأن السياسة (عورة) لا يجوز كشفها » [1] .

هذا النظرة للسياسة تأتي من إفرازات الواقع ، ومما يظهر على السطح بادي الرأي ، لأن أصحابها لم يعرفوا السياسة على حقيقتها ، ولا دخلوا في

(١) محمد جابر الأنصاري ، العرب والسياسة / ٧٤.

غمارها ، ولكنهم عانوا من ممارسات استبدادية ، وممارسات سطحية خالية من العقل والأخلاق فهي أقرب أن تسمى : دجلاً وتهريجاً من أن تسمى (سياسة) .

من معاني السياسة :

جاء في (لسان العرب) في تعريف السياسة وأصل معناها ما يلي : « والسَّوْس : الرياسة ، وإذا رأسوه قيل : سوّسوه وساس الأمر سياسة : قام به . وفي الحديث : كان بنو إسرائيل يسوسهم أنبياؤهم ، أي تتولى أمورهم كما يفعل الأمراء والولاة بالرعية ، والسياسة : القيام على الشيء بما يصلحه» [١] وفي كشاف اصطلاحات الفنون قال في تعريفها : « استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجي في الدنيا والآخرة » [٢] وعرفها ابن عقيل[٣] شيخ الحنابلة في عصره : « ما كان فعلاً يكون معه الخلق أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد » [٤] وهي علم أحوال الأمة وأحوال الأمم وفَنّ علاقات الحكم ، وهي التدبير الحكيم والنظر الحصيف في عواقب الأمور ومن فوائدها أنها « تعلم أسباب التعاون ، وهي التي تطبّب الضعف وتتعهد مغارس القوة » [٥] .

فإذا كانت السياسة تحمل هذه المعاني الإيجابية ، فلم الخشية منها ،

---

(١) لسان العرب ، ٢١٤٩/٣ ، ط دار المعارف ، دون تاريخ.

(٢) أحمد عبد السلام ، دراسات في مصطلح السياسة عند العرب / ١٢ ، ط١٩٧٧ ، تونس.

(٣) أبو الوفاء علي بن عقيل البغدادي ، مؤلف كتاب (الفنون) الذي يزيد على (٤٠٠) مجلد ، كان إماماً مبرزاً في كثير من العلوم توفي سنة ٥١٣هـ ، انظر : شذرات الذهب لابن العماد ، ٥٨/٦.

(٤) ابن القيم ، الطرق الحكمية / ١٥.

(٥) الإرث الفكري لعبد الحميد الزهراوي / ٥٣.

والابتعاد عنها كما يبتعد السليم من الأجرب ، وإذا كان العلماء ورثة الأنبياء فهم المكلفون بالقيام على الأمة بما يصلح شؤونها ، والاقتداء بالأنبياء في سياسة الخلق وانتشالهم من وهدة الضلال ، ومقاومة الظلم والفساد ولهذا كان العلم بالسياسة كرامة يكرم الله بها عبده ، فيرفع درجاته ، كما أكرم نبيه يوسف عليه السلام ، قال ابن تيمية : « ذكر الله أنه يرفع درجات من يشاء في قصة إبراهيم عليه السلام [1] ، وفي قصة يوسف عليه السلام [2] فقصة إبراهيم لدفع ضرر الخصم عن الدين ، وقصة يوسف في العلم بالسياسة والتدبير لتحصل منفعة المطلوب » [3] .

ويجب أن نستبعد هنا مصطلح (السياسة) كما استعمله بعض الحكام السابقين ، بزيادة تشريع غير تشريع الله بزعم عدم وفاء التشريع الإسلامي بحاجات الناس ، وسموا هذا (سياسة) وقد أنكر عليهم العلماء إنكاراً شديداً، مثل الطرطوشي [4] والجويني وأبو بكر بن العربي [5] .

يقول الإمام السخاوي: « ومن أعظم خطأ السلاطين والأمراء تسمية أفعالهم الخارجة عن الشرع سياسة ، فإن الشرع هو السياسة لا عمل السلطان بهواه ورأيه » [6] .

---

(١) يعني قوله تعالى : ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ، إن ربك حكيم عليم﴾ [الأنعام ، ٨٣].

(٢) يعني قوله تعالى : ﴿ ... ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء، وفوق كل ذي علم عليم﴾ [يوسف ، ٧٦].

(٣) الفتاوى ، ٤٩٣/١٤ ، وانظر : عبد الله الحوشاني ، منهج ابن تيمية في الدعوة ، ١٨٢/١.

(٤) في كتابه : سراج الملوك / ٥١ ، ط دار الريس.

(٥) انظر : بدائع السلك في طبائع الملك لابن الأزرق ، ٢٩٨/١.

(٦) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ / ٩٠ ، تحقيق روز نثال ، ط بيروت.

توجيهات القرآن :

ما نعنيه بالسياسة إذن هو ما وضع أسسه القرآن الكريم والسنة النبوية، فالله سبحانه وتعالى أدرى بطبيعة النفس الإنسانية وما يصلحها[1] « والإنسان يجب عليه لتميم سعادته أن يعرف تفاصيل أسباب الخير والشر، ومن أنفع ذلك تدبر القرآن فإنه كفيل بذلك على أكمل الوجوه»[2] وقد قال صلى الله عليه وسلم : « ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته »[3] فكل مسلم هنا هو (كائن سياسي) « وكل حركة إسلامية صحيحة هي حركة سياسية» [4] .

جاء في القرآن الكريم التوجيهات الكاملة لتأصيل هذا العلم فتحدث عن التمكين في الأرض ، ومعنى هذا إقامة الدولة وما يتطلبه ذلك من أمور كثيرة كلها تدخل في صميم السياسة.

قال تعالى : ﴿**واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون في الأرض، تخافون أن يتخطفكم الناس ، فآواكم وأيدكم بنصره**﴾ [الأنفال/٢٦].

﴿**يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى**﴾ [ص / ٢٦] .

﴿**فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً**﴾ [النساء/٥٤].

---

(١) ما من نظرية سياسية في العصر الحديث إلا وهي تتحدث عن طبيعة النفس الإنسانية.

(٢) ابن القيم ، الجواب الكافي / ٢٢.

(٣) متفق عليه ، خ(٨٥٣) ، م(١٨٢٩).

(٤) علي عزت بيجوفتش ، الإسلام بين الشرق والغرب / ٢٨٢.

﴿اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبيـاء وجعلكـم ملوكـا﴾ [المائدة/٢٠].

وتحدث القرآن الكريم عن الملأ والمترفين الذين لا يعجبهم الإصلاح ويقفون حجر عثرة أمام التجديد وإقامة العدل بين الناس وهذه الطبقة توجد في كل العصور ، فأهدافها وتطلعاتها هي هي : استئثار بالثروة ، واستغلال للطبقات الأخرى .

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك﴾ [الأعراف / ٨٨] .

﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ [سبأ / ٣٤] .

﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها﴾ [الأنعام/١٢٣] .

وأدان القرآن الكريم الطغيان والاستبداد السياسي ، وضرب نموذجاً لذلك : فرعون وملأه ، لأن سياسة فرعون تمثل قمة التكبر في الأرض وتسخير الشعوب لمصالح الطبقة الحاكمة **﴿إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾** [القصص / ٨] كما أوضح أن المشكلة ليست في الحاكم المستبد وحده ، وإنما أيضاً في الشعب الذي يقبل الظلم والإهانة ، ويقبل أن يسخر لمصلحة النظام ، وهذا يعني أن عندهم (القابلية للاستعمار)[1] قال تعالى **﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾** ودعا القرآن الكريم ، الشعوب المظلومة

---

(١) كما عبر عنها وكتب عنها كثيراً الأستاذ مالك بن نبي.

إلى مقاومة الظلم وعدم الاستكانة واللين أمام من يريد استعبادها.

وأوضح القرآن للمسلمين حقيقة من يتربص بهم ، وحقيقة ما يضمره الأعداء نحوهم ﴿**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم**﴾ [البقرة / ١٢٠] قال الشيخ رشيد رضا في تفسير هذه الآية : « آية كاشفة حال أهل الملّتين في عصره صلى الله عليه وسلم ، ولا تزال مطردة في أمته من بعده ، وقد اغتر زعماء بعض الشعوب الإسلامية فحاولوا إرضاء بعض الدول بما دون اتباع ملتهم في الكفر ، فلم يرضوا عنهم ، ولو اتبعوا ملتهم لاشترطوا أن يتبعوهم في فهمها وصور العمل بها ، حتى لا يبقى لهم أدنى استقلال في دينهم ولا في أنفسهم » [1] .

فهذا كله من القرآن الكريم بناء للوعي وتشكيل لعقل المسلم في معرفة الخير والشر .

تحدث القرآن عن أصول السياسة عندما أعاد الكلام عن المنافقين وأساليبهم وعن صراع الحق والباطل ، وعن عقلية ونفسية أتباع الملل الأخرى وعن السلم والحرب والشورى والاقتصاد والمال ، وليس هنا مجال تفصيل هذه الأمور ولكن سنضرب أمثلة من العلاقات الاجتماعية والدولية ففي سورة قريش ذكر القرآن (الإيلاف) الذي كان لقريش ، قال بعض المفسرين : إن السورة متصلة بما قبلها أي أهلكت أصحاب الفيل لتأتلف قريش ، وقال بعضهم : أعجبوا لإيلاف قريش[2] ، والإيلاف العهود التي وثقوها مع الدول المجاورة : الشام واليمن لتسير تجارتهم آمنة مطمئنة ،

---

(١) تفسير المنار ، ١/١١٣.

(٢) انظر : التجاني عبد القادر ، أصول الفكر السياسي في القرآن المكي / ١١٣.

فالسورة تتحدث عن الأمن الغذائي وعلاقات الجوار ، والخطاب الموجه لقريش أن يجعلوا بناءهم الاجتماعي قائماً على العقيدة وليس على المصالح التجارية الآنيّة ولا يستغلوا (البيت) لمصالحهم الاقتصادية ، فإن ربّ هذا البيت هو الذي ﴿**أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف**﴾ .

وفي سورة الإسراء كان الحديث عن فساد بني إسرائيل بعد تحريفهم الكتاب ، وهو فساد ما بعد الدولة ، وهو فساد عريض، وكان فساد قريش ما قبل الدولة وقبل الكتاب وهو فساد بسيط ، وكان الإسراء إلى بيت المقدس إرهاصاً وتقدمة لتحرير الأقصى وما حوله من هيمنة الرومان ومن فساد بني إسرائيل الذي لم يعودوا مؤهلين لحمل الرسالة لانتكاس فطرتهم وفساد طويتهم « وهو خروج من منطقة الصراع المحلي إلى القدس وما حولها من بلاد الشام ، حيث الصراع الدولي أكثر عمقاً وتعقيداً »[1].

وجاء في سورة الروم ﴿**الم ، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم**﴾ [الروم/١-٥].

وهذا حديث في صميم المتغيرات الدولية ، وصراع القوى العظمى (الفرس والروم) وتنبيه الوعي الإسلامي لمتابعة المتغيرات في أوضاع القوى العالمية ، والجهة التي يراد للإسلام أن ينهض على أنقاضها ، وقد استشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بزكانته هذه الأحوال فكان الاتجاه نحوه الشام ، وكانت غزوة مؤتة ، فتبوك ، ثم بعث أسامة بن زيد ، قال ابن عطية

---

(١) المصدر السابق / ١١٨.

في سبب سرور المسلمين بنصر الروم « ويشبه أن يقال ذلك بما تقتضيه النظر في محبة أن يغلب العدو الأصغر (الروم) لأنه أيسر مؤونة ، ومتى غلب الأكبر (الفرس) كثر الخوف منه ، فتأمل هذا ، مع ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجاه في ظهور دينه ، وغلبته على الأمم »[1] .

بل إن الآيات الأخرى من سورة الروم ﴿**ظهر الفساد في البر والبحر**﴾ فسرها القرطبي بالفساد الاقتصادي بسبب صراع الفرس والروم لمد نفوذهما في الجزيرة العربية .

السيرة النبوية ووضوح الخطاب :

السيرة النبوية هي التطبيق العملي للقرآن ، وهنا نجد الوضوح في الخطاب ، والاستفادة من كل الظروف ، فعندما طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم الحماية من بعض القبائل كي يبلغ الدعوة ، رفض شروطها التي لا تناسب خطط الإسلام في الدعوة ، مع حاجته الأكيدة للحماية ، وبعد رجوعه صلى الله عليه وسلم من الطائف قبل الحماية من أحد زعماء قريش، حيث لم يكن هناك تنازل عن المبادئ .

إن صلح الحديبية من الأمثلة الواضحة في السياسة النبوية ، ولكن لنأخذ مثالاً من موضع آخر من السيرة ، من السرايا التي وجهها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل غزوة بدر وقاد بعضها بنفسه ، والصحابة الذين كلفوا بمهمات القيادة في هذه السرايا : حمزة بن عبد المطلب ، عبيدة بن الحارث ، سعد بن أبي وقاص ، عبد الله بن جحش ، والسرية تعني العدد

---

(١) تفسير ابن عطية ، ١١/٤٢٥.

القليل ، فبعضها لا يزيد على العشرين ، وقد تصل إلى المئتين ، ومن خلال هذه السرايا حقق رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدافاً ضرورية في تلك الفترة من حياة الدعوة والدولة، ومنها :

١- تحييد القبائل المجاورة للمدينة حتى لا تكون عوناً لقريش .

٢- إظهار قوى المسلمين حتى لا تظن قبائل العرب أن المسلمين لقمة سائغة وغنيمة باردة .

٣- إضعاف قريش اقتصادياً ، ووضع طريقها التجاري تحت مراقبة وسيطرة المدينة .

٤- تدريب الصحابة على القيادة والإدارة تدريباً عملياً ، فمن الملاحظ أن كل سرية كان لها قائد جديد ، كما تدرب الصحابة على النظام والأوامر السرية المكتوبة (سرية عبد الله بن جحش) .

٥- تخلص المسلمين من فترة الضعف وازدياد الثقة بأنفسهم .

فهذا كله قمة السياسة العملية في التعامل مع القبائل ومع قريش ، وتقوية الجبهة الداخلية ، وفي ظروف صعبة كظروف تأسيس الدولة في المدينة والأعداء يحيطون بها من كل جانب ، وفي زمن يعد بالأشهر لا بالسنين تقوم تحالفات ومعاهدات مبنية على معرفة دقيقة بنفسيات القبائل وتطلعاتها .

الإسلاميون والسياسية :

لم يُعط هذا العِلم العناية الكافية في هذا العصر ، ولم يؤصل تأصيلاً شرعياً ، ولم يُبن على دراسات ومعلومات لمعرفة واقع المجتمعات الإسلامية والسياسات الدولية ، وأين تقع مصلحة المسلمين الحقيقية ، بل إذا قلنا إن

كثيراً ممن يدعي العلم بالسياسة إنما يمارسونها (كهواة) فلا نبعد عن الحقيقة . إنهم يمارسونها على أنها اللين والتنازلات التي لا تُرضي الصديق ولا تزعج العدو ، ويمارسونها بتصريحات متناقضة ، ودخول في تحالفات غير ناجحة ، ضررها أكثر من نفعها ويمارسونها بشعارات عاطفية ليس وراءها مشروع عملي واضح وبجهل عجيب بالأعداء الداخليين الذين طعنوا المسلمين في كل مراحل التاريخ « والذي يريد أن يفكر سياسياً بشكل جيد عليه أن يقرأ التاريخ بشكل جيد »[1] ليست السياسة تتبع الأخبار والصحف فهذه وسيلة لمعرفة الواقع ، وليست حب الجدل في أحوال الدول والأفراد دون علم ، ولا أن يحمل المسلم نظرية المؤامرة ويفسر بها كل الأحداث[2] ولكنها المواقف الصحيحة من كل الأحداث التي تمر بها الأمة ووضع الخطط والمشاريع الحضارية السياسية للنهوض والدخول في (الشأن العام) والعمل لمصلحة الأمة ولعمارة الأرض والاستخلاف فيها .

لقد تأثر المسلمون بالأجواء العربية التي عاشت على الخطب والشعارات والضجيج الإعلامي ، والفصل بين السياسة والأخلاق ، وتحولت السياسة إلى انتهازية يسميها المفكر الجزائري مالك بن نبي (بوليتيكا) تمييزاً لها عن السياسة بمعناها العلمي القائم على الدراسات والتجارب ، « والانحراف له دروب مظلمة يتعثر فيها السائر في كل خطوة » [3] .

قد تمر الدعوة بفترة تدعوها لعدم الانشغال بالسياسة بمعناها الضيق،

---

(١) محمد جابر الأنصاري ، العرب والسياسة / ٥٥ ، والكلام لـ (بيير فيلار).

(٢) ربما كان العيش الطويل تحت حكم الاستبداد هو الذي يولد هذه النظرة السطحية للأحداث.

(٣) مالك بن نبي ، شروط النهضة / ٣٤.

فيظن الظان أنها دعوة غير شمولية ، ولا يقدّر أنهـا الأولويـات التـي يعلمهـا أهل العلم والخبرة كما ذكر الشيخ رشيد رضا بمناسبة تأسيس (المنار) : « لم أنشأ المنار لمقاومة سلطة ولا حكومة ، ولا لمدح سلطان أو أمير ولا لذمهمـا، وإنما أنشئت لمساعدة العقلاء على السـعي في تكويـن الأمـة في طريـق التربيـة والتعليم ». فالسياسة لا تعني التهالك علـى الحكـم فقـد يكـون بـين الدعـوة والتمكين في الأرض مراحل ومفاوز ، والتخطيط السليم قـد يعنـي الاشـتغال بأمور تساعد على قوة المسلمين المعنوية والمادية .

العلماء والسياسة :

كـان علمـاء أهـل السـنة في العصـور السـابقة يدركـون مـدى جديـة الأخطار التي تتعرض لها الدول الإسلامية ، وأعني بذلك الأخطار الخارجية، فكانت الأولوية عندهم لوحدة الأمة وتطبيق الشـريعة ، ودفـع العـدو ، فهـم وإن شاركوا من خلال منصب القضاء والإفتاء في جزء من سياسة الدولـة إلا أنهم رأوا أن واجبهم الأساسي هو إسداء النصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسب القدرة والاستطاعة ، وحسب الظروف التي يمُّر بها المسلمون ، بل إن خوف العلماء من (الفتنة) التي تعني الاقتتال الداخلـي كـان قـد قـوّى من سلطان الدولة وهيمنتها ، وانقسم المجتمع إلى (أرباب السيف) و (أرباب القلم) وصبر العلماء على كل ذلك في سبيل الأولويات التي وضعوها نصـب أعينهم ، أما اليوم فقد تغير الحال ، فالوحدة تمزقت ، وتطبيق الشريعة حُصـر في (الأحوال الشخصية) وحتى هذه لم تسلم من هجوم المنافقين العلمـانيين ، فهم يسعون إلى إبعادها كما هو واقع في بعض البلدان العربية.

إن الفتنة اليوم هي هذه العَلْمنة والعولمة التي لم تـدع بيتـاً إلا دخلتـه ،

وهي هذه الهيمنة التغريبية التي تهدف إلى تذويب الشخصية الإسلامية ، وإبعاد الأمة عن أخص مقوماتها ، وعناصر قوتها ، فهل يُعدّ الاشتغال بالسياسة -وبمفهومها العام- وفي مثل هذا الظروف من فضول الأوقات ، أم تُعتبر من الغيبة والسعي بالفساد ؟ !!

إن ابتعاد العلماء عن الشؤون السياسية « جعلهم يحجمون عن الخوض في أي أمر سياسي ، وإن تكلموا فيه كان الخطأ أكثر من الصواب لعدم اشتغالهم بمثله » [1] وهذا الانسحاب من الحياة العامة جعل علماء مصر بعد انسحاب الحملة الفرنسية يفوضون شؤون الحكم إلى ألباني اسمه (محمد على سرششمة)[2] وكان أمياً لم يتعلم قط ، وصار اسمه محمد علي باشا ، « وركبوا إلى محمد علي وقالوا له : أنت صرت حاكم البلدة والرعية » [3] وعندما اشتد عود هذا الجندي الألباني بطش بالعلماء وأزاحهم عن مكانتهم الاجتماعية ووضع الشيخ الشرقاوي تحت الإقامة الجبرية في منزله ، ونفى عمر مكرم نقيب الأشراف وقائد المشايخ والجماهير عن القاهرة ، لقد تعلم هذا الجندي الدرس القائل بأن على الحاكم أن يحطم أولئك الذين رفعوه إلى الحكم ولو لم يقرأ لـ(ميكافيلي).

إن الذين يبحثون في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكيف كان يأكل ويشرب، ويمشي ويتحدث، ولا يبحثون أيضاً كيف كان يدعو ، وكيف يحارب الفساد الاجتماعي وكيف يحارب الربا وكيف كان يقاتل

---

(١) فهمي جدعان ، أسس التقدم عند مفكري الإسلام / ١٧٥ ، والكلام لعبد الله النديم.

(٢) انظر محمود محمد شاكر ، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا / ١٣٥.

(٣) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ٣/٧٥.

لهداية الخلق هؤلاء يغالطون أنفسهم حين يظنون أن هذا الانتقاء كاف لإحداث نهضة قوية .

وإذا كان بعض الإسلاميين قد أوغلوا في الحديث عن السياسة في وجهة نظرهم الخاصة ، وهم في الحقيقة أبعد الناس عن السياسة بمفهومها العلمي ، وإذا طغى عندهم الهاجس السياسي على التربية والعلم الشرعي، وإشراك الأمة في تقوية الصف الإسلامي لئن كان ذاك فلا تكن ردة الفعل الابتعاد عن الشؤون العامة ، والعمل لمصلحة الأمة ، وهم يعلمون أن الإسلام « إصلاح يورث من اهتدى به سعادة الدنيا والسيادة والسلطان فيها قبل الآخرة » [1] .

---

(١) تفسير المنار ، ٩/٦٤٠.



الأمن النفسي

جاء في الحديث النبوي : « من أصبح منكم آمناً في سربه مُعافىً في جسده ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها »[1] .

الأمن نعمة عظيمة ، بل هو من أجلِّ النعم ، لأنه يعطي الاستقرار، والاستقرار يقوي الأمل ، والأمل يدفع للجد والعمل ولا يعرف قدر هذه النعمة إلا من حُرمها أو انتقصت منه بعض جوانبها ، ولهذا مَنَّ الله سبحانه وتعالى على قريش ﴿**الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف**﴾ فهما نعمتان تشتد حاجة الإنسان إليهما ؛ الأمن النفسي والأمن الغذائي ، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هاتين النعمتين ليدعو قريشاً لعبادة ربِّ البيت الذي جاورته قريش وكان لها بسببه هذه المكانة ، وهذه التجارة والإيلاف وعاشت في بحبوحة وأمن من العدو .

الأمن الداخلي :

إن من أصعب الأمور على الإنسان أن يعيش خائفاً يترقب ، فكيف إذا امتد هذا الخوف سنين وسنين ، وإذا كان هذا الخوف من عدو معروف بعداوته فالخطب يسير ، فالمسلم يصبر وينتظر الأجر ، أما إذا كان من داخل المجتمع المسلم ، فهذه هي الحالقة التي تحلق الدين ، وهذا الذي يمزق العلاقات الاجتماعية ويشيع القلق وعدم الطمأنينة ، ولذلك حارب الإسلام وشنّع على الناس عادات الغيبة والنميمة ، وطلب منهم الابتعاد عن خصال الأراذل مثل الهمز واللمز ، ولم يبح هجر المسلم لأخيه إلا لأسباب معينة ،

---

(١) صحيح سنن الترمذي ، ٢/٢٧٤.

وحرمّ التجسس وتتبع العورات ، وإشاعة الفاحشة وقالة السوء كل هذا حتى يعيش المسلم في أمـن نفسي ، وحتى يتفرغ لأمور كبيرة وبهمة عالية ، والحقيقة التي يجب أن نعترف بها أن هذه الأمراض الفتاكة موجودة داخل الصف الإسلامي باسم مصلحة الدعوة ومصلحة (التنظيم) وما هي بمصلحة ولكنها الأهواء التي أفسدت الصف الإسلامي وجعلت الفرقة تنشب فيه ولا تتركه ، إنك تجد المسلم الذي يصلي ويصوم ، وتبدو عليه ملامح الخير ولكنه بسيط ساذج يُسخَّر للتجسس على إخوانه باسم المصلحة ، ولا تسأل بعد ذلك ما يجره من تمزق في العلاقات الأخوية ، وما يتبع من أمراض اجتماعية .

حاجة المسلم للأمن :

يحتاج المسلم أن تقدر جهوده ، وأن تُذكر ولا تُنكر ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر فضائل أصحابه ومحاسنهم ، ويقول : « خذوا القرآن عن أربعة : عن ابن مسعود ، وأبيّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وسالم مولى أبي حذيفة » [1] ويثني صلى الله عليه وسلم على أصحابه ويقدر جهودهم وتضحياتهم في حمل الدعوة : « إن من أمَنَّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر » [2] كما كان يذكر ميزاتهم وفضائلهم الشخصية « قد كان في الأمم مُحَدَّثون ، فإن يك في أمتي أحد فعمر بن الخطاب » [3].

---

(١) صحيح سنن الترمذي ، ٣/٢٣٠.

(٢) المصدر السابق ، ٣/٢٠٠.

(٣) المصدر السابق ، ٣/٢٠٧.

يحتاج المسلم إلى مثل ما أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وتبسمك في وجه أخيك صدقة ، ومن نوع ما ورد عنه أنه كان لا يواجه أحداً بما يكره ، وإذا بلغه عن الرجل شيئاً لم يقل : لِمَ قلت كذا ؟ ولكنه يعمم ويقول : ما بال أقوام . يحتاج المسلم إلى قريب مما كان يحرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على توفير الجو الآمن لصحابته ، وإبعادهم عن المضايقات ، فعندما أسلم في أول الدعوة عمرو بن عبسة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنك لا تستطيع يومك هذا » ونصحه بأن يرجع إلى أهله ، فإذا سمع بأن الدعوة قد ظهرت فليأت .

يحب الإنسان أن يشعر به الآخرون ، ولا يحب الإهمال وإنكار الجهود ونحن مأمورون بأن نقدر ونحترم مَنْ سبقنا إلى الخير، وأن لا نحمل غلاً ولا حقداً عليهم ، قال تعالى ﴿**والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غِلاً للذين آمنوا**﴾ [الحشر / ١٠].

كما يجب على المسلم أن لا يكون في صف (إذا لعن آخر هذا الأمة أولّها) فإن هذا من أسوأ الأمراض التي تصاب بها الأمم ، فإذا كان بعض الناس يتجرأ على علماء الأمة السابقين المشهود لهم بالفضل والعلم ، فهم على معاصريهم وأقرانهم أشد حالاً وأسوأ مقالاً ، هؤلاء المتربصون الذين يفسرون ما بين السطور وما وراء السطور ، ويعيشون على الطعن والغمز واللمز.

اشتكى المفكر الجزائري مالك بن نبي من هذا الأذى الداخلي الذي أصابه من (جهات إسلامية) ولم يصبه مثله من جهات خارجية ، كما

اشتكى آخرون من كبار الدعاة في هذا العصر .

الأخوة والصداقة :

كان الصحابة إذا سمع أحدهم خبراً ساراً بشرّ به أخاه ليفرحه ، فعن عمر رضي الله عنه قال : « مَرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا معه وأبو بكر على عبدالله بن مسعود وهو يقرأ ، فقام فتسمع قراءته ، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « من سرّه أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل فليقرأه من ابن أم عبد » قال : فأدلجت إلى عبدالله بن مسعود لأبشره بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما ضربت الباب ، أو قال : لما سمع صوتي قال : ما جاء بك هذه الساعة؟ قلت : جئت لأبشرك بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . قد سبقك أبو بكر ، فقلت : إن يفعل فإنه سباق بالخيرات ، ما استبقنا خيراً قط إلا سبقنا إليه أبو بكر »[1].

وكان الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك يتمنى أخاً يطارحه الحديث ولا يعاني معه مؤونة التكلف ، إنها حاجة نفسية واجتماعية فالنفوس تتشاكل والأرواح جنود مجندة .

يحتاج المسلم إلى أخوة وصداقة من مثل ما حكى القاضي عياض في المدارك عن (سحنون)[2] رحمه لله وصاحبه عون بن يوسف وابن رشيد حين دخلوا على أسد بن الفرات فسألهم عن مسألة ، فابتدر لجوابه صاحبا سحنون ، وسكت سحنون ، فلما خرجوا قال له صاحباه : لِم لَم تتكلم ؟

---

(١) مسند الإمام أحمد ، ٣٧٢/١ ، تحقيق الأرناؤوط.

(٢) من كبار علماء المالكية ، نشأ وتوفي في القيروان ، وهو صاحب (المدونة) موسوعة الفقه المالكي.

قال سحنون : ظهر لي أن جوابكما خطأ ، وبيّن لهم ذلك . فقالا : لِمَ لم تتكلم بهذا ونحن عنده ؟ قال : « خشيت أن ندخل عليه ونحن أصدقاء ونخرج ونحن أعداء » [1].

إن المحافظة عل الأخوة والصداقة أهم من الأموال والنفائس ومعاملة الصديق تكون بسلامة الصدر وانفتاح القلب ، ولا يعامل بالمواربة والحذر كالعدو ، فإن ذلك ينقص الأخوة بل ينقضها.

إن الحديث عن الأمن النفسي يلفت انتباهنا إلى ظاهرة نجدها في كتب تراجم الأعلام ، وهي ظاهرة تستحق الوقوف عندها ، وهي انسحاب أعداد من العلماء من الحياة العامة وتفضيل العزلة ، وقد يحرق بعضهم كتبه ومن الطبيعي أن تكون لهذه الظاهرة أسبابٌ مختلفة ، فقد يكون هذا الانسحاب طبيعياً كأن يتفرغ الإنسان في آخر حياته للعبادة والأنس بربه ، وقد يكون الانسحاب بسبب ما يراه المسلم من شدة التنافس على الدنيا ، ومحاولة الأقران أو الآخرين تشويه سمعته وإيذائه ، مما يجعله ينكمش على نفسه ، والناس في العادة يصدقون الإشاعات والأباطيل ، فينزوي هذا العالم صابراً محتسباً . وهذه الظاهرة مستمرة لأن أسبابها موجودة من الأخلاق المتردية والتنافس على الشهرة وإبعاد الأنداد والأكْفَاء .

الأمن الاقتصادي :

لا يخفى الارتباط بين الأمن النفسي والأمن الاقتصادي ، وقد ذكرنا في البداية حديث الرسول صلى الله عليه وسلم وقوله : (عنده قوت يومه)

---

(١) قال القاضي عياض: « وسكت سحنون حين علم أن القضية لا يفوت أمرها » أي أن تصحيحها سهل بعد ذلك. انظر : مجلة الفتح ٢٦/٢ ، والمقال للشيخ الخضر حسين عن الدعوة والإصلاح.

وجاء في الحديث أيضاً «ليس المؤمن بالذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه»[1].

وروى مسلم عن عمر رضي الله عنه قال: «كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يُوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب فكانت للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة، فكان ينفق على أهله نفقة سنة، وما بقي جعله في الكراع السلاح عدة في سبيل الله ..»[2].

وكان هاجس عمر رضي الله عه في خلافته، كيف يصل هذا المال إلى كل مسلم، وكيف يعيش المسلم حالة الاطمئنان، فعن عمرو بن ميمون قال: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل أن يصاب بأيام ووقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف [3]، قال: كيف فعلتما؟

أتخافان أن تكونا حَمّلتما الأرض مالا تطيق ؟

قالا: حمّلناها أمراً هي له مطيقة، ما فيها كبير فضل.

قال: انظرا أن تكونا حملتما الأرض مالا تطيق.

قالا: لا.

فقال عمر: «لئن سلَّمني الله لأدعنَّ أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدي أبداً» [4].

ولا يتم هذا الأمن الاقتصادي الذي كان هاجس عمر رضي الله عنه إلا بأن يطمئن المسلم أيضاً أنه لا يحارب في رزقه لمجرد أنه مخالف أو معارض سياسي كما يقال اليوم، وقد ضرب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي

---

(١) الألباني، صحيح الجامع الصغير، ٢/٩٤٩.

(٢) خ (٢٧٤٨)، م (١٧٥٧)، وانظ الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية / ٧٨٥.

(٣) كُلف هذان الصحابيان بمسح سواد العراق، وضرب الخراج على أصحابه.

(٤) صحيح البخاري، كتاب المناقب / ٣٤٢٤.

الله عنه أروع الأمثلة في هذا ، فلم يمنع أعطيات بيت المال على من يخالفه في الرأي « وكان علي رضي الله عنه يدرُّ عليهم أرزاقهم ، وأعطياتهم من بيت المال » [1] ومخالفوه هم الذين رفضوا موافقته على اجتهاده في القتال الذي وقع على كره منه أيضاً (الجمل وصفين) من أمثال سعد بن أبي وقاص وابن عمر وأسامة بن يزيد وغيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم ، فلم يغضب علي منهم ولم يلزمهم برأيه ، ولم يقطع عنهم ما يستحقونه من بيت المال .

إن بين مسلمي اليوم من توعَّد إخوانه أنه إذا وصل للحكم فسيفعل بهم الأفاعيل ؟! ومنهم من استغل وجود الأموال بين يديه ليمارس ضغوطاً عليهم ، إما أن يكونوا معه ، وينصاعوا له أو يقطع عنهم الأموال ، وبعض الذين وصلوا للحكم تصرفوا كتصرف الحكام المعاصرين ، يستعملون سياسة الترهيب والترغيب ، فالذي يؤيده يساعده مالياً ويقربه ، والذي ينتقد ويصحح يبقى بعيداً [2] .

إن المسلم اليوم محاصر بين دول تهدر المال العام وتستعمله في المصالح الشخصية لزعمائها ، ومصالح من يحميها من المنافقين والمتزلفين ، إسرافاً وتبذيراً وسفهاً ، فالرجل الأمين المخلص الذي يعمل عند هذه الدول ولا يقبل الرشوة ولا الخيانة يعيش في ضيق من الرزق ، وفي قلق وهَمٍّ ، كيف يدبر أمره ليعيش حياة كريمة . وبين تجمعات ومؤسسات تعامل الفرد مثل الدول ، فمن ينتمي إليها ويبايعها ويسكت على أخطائها تُسَهَّل له سبل

---

(١) الإمام الجويني ، الغياث ، ص١١٤.

(٢) في اجتماع ضم هذا (القائد) وتلامذته أرادوا أن ينصحوه ، ويمارسوا النقد الذاتي ، فما كان منه إلا أن التفت إلى أحدهم وقال له : ألم أعطك أموالاً واشتريت منزلاً وقال للآخر ألم أساعدك في الوصول إلى المنصب الفلاني ، فسكت الجميع وانصرفوا.

العمل ، أو تساعده بما تملكه من علاقات عامة في إيجاد العمل ، كما أنه محاصر بين نظم قائمة على الربا والرأسمالية ولا تفكر إلا في المال كيف تكدسه ، وليس عندها أدنى شفقة أو رحمة ، بين أغنياء من المسلمين لا يقدِّرون قيمة المال ، كيف ينفق وكيف يستثمر ، وكيف توجد الحلول المناسبة لظروف بالغة التعقيد .

قد يُقال هنا : لقد ضيقت واسعاً ، فالأمور بخير والحمد الله وأهل الخير موجودون . نعم ، ولا شك في وجود أهل الخير وفي وجود من يهتم بهذه القضايا ، ولكنها تحتاج إلى اهتمام أكبر بكثير مما هو واقع الآن ، وقد كان من أول أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم بعد بناء المسجد في المدينة عقد المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، هذه قضية حساسة ولا تترك دون بحث وإيجاد للحلول ، أو على الأقل التذكير بها .

بين العقل والعاطفة

إن سبب الحديث عن هذه الثنائية (العقل - العاطفة) هو السؤال المتجدد : لماذا يندفع المسلم عاطفياً لمغامرات سياسية أو عسكرية محكوم عليه بالفشل وغير مأمونة العواقب . وقد يتكرر هذا الفشل مرات ، ولماذا نرى مسلماً قد تخرج من الجامعات ولا ينقصه الذكاء والمنهج العلمي في اختصاصه كالطبيب والمهندس مثلاً ومع ذلك فهو يصدق أعتى الخرافات ويتبع شيخاً جاهلاً عرياً عن العلم والتقوى . لماذا لم تنم عنده القدرات العقلية التي وهبها الله للإنسان ؟ .

تحدث القرآن الكريم عن هذا الموضوع وأنحى باللائمة على الذين لا يستعملون عقولهم ﴿**أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها**﴾ [الحج / ٤٦] ووردت آيات كثيرة تمدح استعمال هذا الهبة من الله ﴿**ويريكم آياته لعلكم تعقلون**﴾ وقال تعالى : ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون**﴾ « أي الذين ينظرون في أسبابها ويدركون حكمها وأسرارها ويستدلون بما فيها من الإتقان على استحقاقه سبحانه للعبودية دون غيره »[1] .

والملاحظ أن القرآن لم يستخدم لفظة (العقل) وإنما استخدم الفعل: (يعقلون) (وما يعقلها) ذلك لأن العقل ليس جسماً قائماً بذاته كما كان

---

(١) تفسير المنار ، ٦٣/٢.

يظن الفلاسفة الأقدمون بل هـو وظيفـة ، داة مثـل السـمع والبصـر ، يعتريـه النشاط والعجز كما يعتري وظائف الأعضاء الأخرى وقد كان علماء الطب الماديون يـرون أن العقـل إنما هـو انعكاسـات للتغيرات الدقيقة في كيميـاء الدماغ، ثم جـاء علمـاء الطب الحديث ليقولـوا : إن العقـل غير الدمـاغ ، ويشبهون الدماغ بجهاز التلفاز ، والعقل بمحطة الإرسال ، فإذا حدث عطب في التلفاز تشوهت الصورة بالمرة [١] .

من معاني العقل

إن العقل الذي نتحدث عنه هو الذي يفكر ويتدبر ويتبصـر العواقـب، ويميز بين الأمور، ويوازن بين الأضداد وهو العقل الذي « يقبل الحق ويثبته ، ويبطل الباطل وينفيـه » [٢] وهـو العقـل المشـتق مـن مـادة (عقـل) التـي مـن معانيها: الربط والمنع والاحتراس من الوقوع في الزلل ، وهذا المعنـى موجـود في اللغات الأخرى فكلمة (Mind) الإنكليزية تعني : الاحـتراس والمبـالاة ، والعقل هو الغريزة التي أوجدهـا الله في الإنسـان فتميز بهـا عـن الحيـوان ، وعليه مناط التكليف ، وهو العلوم الضرورية التي يتفق عليهـا جميع العقـلاء كمعرفـة أن العشـرة أكـثر مـن الخمسـة ، وجـواز الجـائزات واسـتحالة المستحيلات كما يقول أبو الطيب الباقلاني ، وهو العمل بموجب العلم الذي يوصل الإنسان إلى بدهيات الأمور ، والنجاة من عذاب الله ، وهذا ما أشـار إليه القرآن : ﴿**وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحـاب السـعير**﴾ [الملك/١٠] ، كما أشار القرآن إلى القدرات العقلية الموجودة عند الإنسـان،

---

(١) مالك بدري ، التفكر / ٢٦ ، معهد الفكر العالمي ، واشنطن.

(٢) عبد الرحمن المحمود ، موقف ابن تيمية من الأشاعرة ، ١/٢٢٨ ، والكلام لابن تيمية.

وما عليه إلا أن يستخدمها وينميها ، ويضعها في موضعها المناسب، مثل قدرة التدبر وهي الربط بين الأسباب والنتائج ، وقدرة التفكير وهي استعمال المهارات العقلية للوصول إلى الحقيقة، وقدرة الإبصار التي تساعد على دقة الفهم والتعميق في تحليل الظواهر [1] .

ومن خلال الارتباط بالنص القرآني والسنة النبوية الصحيحة تدبراً وفهماً قامت في الصدر الأول من تاريخ الإسلام نهضة علمية كان من آثارها الاجتهاد والتجديد ، وبروز المدارس الفقهية الكبرى ، والاتجاه نحو العلم المفيد في كل نواحي الحياة .

أسباب انحسار القدرات العقلية :

أولاً : نشأ بعد ذلك التقليد المذموم والإخلاد إلى الكسل الفكري ، وكان الذي ساعد على ذلك ظهور التصوف الذي يعتمد على (الذوق) و(الرؤى) وليس على المناهج الصحيحة السليمة ، وخاصة عندما انحرف بعد القرن الثالث نحو (الفناء)[2] و(الغنوصية)[3] كما يعتمد التصوف على الانقياد للشيخ انقياداً أعمى. وهذا يعني إلغاء دور العقل بل يعتبر العقل عندهم عائقاً من عوائق الطريق إلى الله !! ومن يقرأ كتب القوم مثل (الطبقات الكبرى) للشعراني فسيجد أن المجاذيب والبلهاء مقدمون عل العلماء والفقهاء ، حتى أصبحنا سخرية لأهل الأديان المنسوخة كما يقول الإمام الألوسي .

---

(١) انظر ما كتبه ماجد الكيلاني في : مقومات الشخصية المسلمة / ٥٢.

(٢) ويسمونه (الفناء عن وجود السوى) أي ليس موجوداً إلا الله سبحانه وتعالى ، وكل ما عداه ليس له وجود حقيقي ، وهذه هي وحدة الوجود المناقضة لعقيدة التوحيد التي جاء بها الأنبياء.

(٣) المنسوبة إلى (أفلوطين) الإسكندري وهي التي ترى أن المعرفة تأتي عن طريق الغيبة عن النفس وعن العالم والمحسوس ، وتُلقى إلقاء عند تطهر النفس (الإشراق).

وكان لظهور الفرق التي تؤمن بالإمام المعصوم أثر في وجود الشيخ المعصوم ، وإن لم يصرحوا بعصمته ، ولكن واقع الحال يدل عليه ، وهذا مما يريح بعض الناس من عناء التفكير ، فالإمام هو الذي يفكر عنه ويعطيه النتائج جاهزة .

ثانياً : غلبة التقليد وفشو التعصب المذهبي ، فعاش الطلبة على المختصرات والحواشي ، ونظم المختصرات وشرح النظم ، ولا يرجعون إلى المطولات والأصول ليتمرنوا على الاجتهاد ، وليؤدوا واجب العلماء ، بل تعدى التقليد في المذاهب على التقليد في كل شيء فكان من جراء ذلك الجمود والبعد عن شؤون الحياة ، ولا يعني هذا عدم وجود من وصل إلى رتبة الاجتهاد في كل عصر ، ولكن الاتجاه العام كان أقرب إلى التقليد.

ثالثاً : عندما غالت بعض الفرق القديمة ومن تأثر بهم في الحديث في تعظيم العقل ، وإدخاله في مجال غير مجاله ، وظنهم أنه يمكن أن يتعارض العقل والنقل ، وردوا الأحاديث الصحيحة بزعم مخالفتها لعقولهم، ووقعوا في المماحكات النظرية والجدل العقيم ، عندما حدث هذا كانت ردة الفعل عند معارضيهم شديدة ، فوقعوا في الطرف الآخر المناقض حتى للعقل الفطري البدهي الذي لا يتعارض أبداً مع نصوص الوحي ، وابتعد هؤلاء عن تعليل الأحكام الشرعية وإظهار الحكمة فيها ، معارضة للفرقة الأولى التي تدخل التعليل في كل شيء .

هذا في القديم ، وفي العصر الحديث وقع ما يشبه ذلك أو أشد منه ، فإن بعض المسلمين أصيبوا بحساسية من كل شيء فيه استعمال للنظر أو العقل ، أو قياس الغائب على الشاهد ، فلا يرغبون في تحليل أو تعليل ، وكل

ذلك ردة فعل على الاتجاه الذي يسمونه بـ (العقلانيين) وهكذا فإننا نجد الواحد من هؤلاء يمكن أن يصدق أحداثاً وأخباراً لا تقبلها بدائة العقول أو المنطق العلمي ، لأنه لا يحب أن يقع في دائرة (التفكير) وحتى لا يتهم بأنه قريب من (العقلانيين) وهذا داء خفي ، فهذا الصنف من الناس وإن كان يحارب التقليد إلا أنه وقع في تقليد أشد مما وقع فيه الآخرون ، يقول ابن تيمية : « قال طائفة من العلماء : الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل » [1] .

إن كِلا الطرفين ابتعدا عن منهج أهل السنة فالذين يسمونهم بـ (العقلانيين) ظنوا بالقرآن والسنة ظن السوء واعتقدوا أن هذين المصدرين لا يقدمان الأدلة العقلية البرهانية وإنما الأدلة الخطابية التي تناسب عقل الجمهور ، وهذا خطأ فاحش وجهل بالقرآن والسنة ، فالقرآن جاء بالأدلة السمعية والعقلية ، وهي كلها أدلة شرعية فلا يقال : هذا دليل عقلي وهذا دليل شرعي ، لأن الدليل الشرعي إما أن يكون سمعياً معلوماً بالعقل ، أو عقلياً أتى به الشرع ، فالأول مثل إخبار الله سبحانه وتعالى عن الغيب ، وقصص الأنبياء السابقين ، ومقدار العبادات وكيفيتها ، فهذه أشياء سمعية أتى بها القرآن أو الحديث نؤمن بها ونصدقها، وأما الأدلة العقلية التي أتى بها الشرع فهي الأقيسة والأمثال المضروبة في القرآن ، قال تعالى : ﴿**ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون**﴾ [الروم / ٢٨]، أي : « يا أيها الناس إذا كان لكم عبيد تملكونهم،

---

(١) الفتاوى ، ٣٥/١٠.

فإنكم لا تشركونهم أموالكم ، ولا في أموركم وليس من شأنكم أن تخافوهم في أن يرثوا أموالكم أو يقاسموكم في حياتكم ، كما يفعل بعضكم مع بعض، فإذا كان هذا فيكم فكيف تقولون : إن من عبيده سبحانه وتعالى شركاء له في سلطانه وألوهيته ، وتثبتون في جانبه ما لا يليق عندكم في جانبكم »[1]، وهذا ما يسمى قياس الأولى ، وهو كثير في القرآن الكريم ، يقول الشيخ الشنقيطي : « وحكمة ضرب الأمثال في القرآن الكريم أن يتفكر الناس ، فيفهموا الشيء ونظيره ﴿**وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون**﴾.

وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في مخاطباته لما قال : « ما منكم من أحد إلا سيخلو به ربه كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر ، قال أبو رزين العقيلي : كيف يا رسول الله : وهو واحد ونحن كثير ؟ قال: سأنبئك بمثل ذلك في آلاء الله ، هذا القمر آية من آيات الله ، كلكم يراه مخلياً به ، فالله أعظم » ، وكذلك السلف فقد روي عن ابن عباس أنه لما أخبر بالرؤية (رؤية المؤمن لله سبحانه وتعالى في الدار الآخرة) عارضه السائل بقوله تعالى ﴿**لا تدركه الأبصار**﴾ فقال له ابن عباس : ألست ترى السماء ؟ قال: بلى ، قال أتراها كلها ؟ قال : لا ، فبين له أن نفي الإدراك لا يقتضي نفي الرؤية.

وظن الطرف الثاني أن القرآن لا يستخدم الأدلة العقلية والبراهين النظرية (الأقيسة والأمثال) وإنما هي روايات سمعية فقط ، فابتعد عن استخدام القدرات العقلية التي وهبها الله للإنسان ، فالأمثال المضروبة في

---

(١) تفسير ابن عطية ، ١١/٤٥١.

القرآن أدلة عقلية وهي شرعية ، وقد يكون الدليل الشرعي لا يعلم إلا بخبر الصادق صلى الله عليه وسلم فهذا سمعي شرعي.

رابعاً : ومن الموانع التي تعيق استخدام القدرات العقلية ما ابتلي به المسلمون في العصور المتأخرة من طرق التعليم التي تركز على السرد والحفظ والتلقين ، وتتجنب الحوار والمناقشة والاستنباط والتعليل ، فنتج عن ذلك نمو ذاكرة الحفظ ، وضعف التفكير العميق ، وأصبح من السهل على المسلم أن يخطب ، ولكن من الصعوبة عليه أن يناقش ويتعمق في المسائل . وقد كانت طرق التعليم في العصور الأولى تتبع طريقة الحفظ والفهم كما قال الإمام عبدالله بن المبارك :((أول العلم النية ثم الاستماع، ثم الفهم ، ثم الحفظ ، ثم العدل ، ثم النشر)) وعلى هذه الطريقة تخرّج أمثال أبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني في حلقة أبي حنيفة رحمه الله . ولا يعني هذا التقليل من ملكة الحفظ ، ولكننا نتحدث عن التوازن ، فالخطاب الإسلامي ما يزال في عمومه خطاباً عاطفياً ، استطاع أن يجمع الناس على القبول بالمشروع الإسلامي ، ولكنه لم يستطع إنشاء مؤسسات علمية ، وصياغة مشروع علمي عملي ، والفرد الذي لم تنضج قدراته العقلية يصاب بالحيرة حينما تواجهه مشكلة ما ، فإما أن يستسلم للحل السهل أو ينفعل ويركب رأسه ، ولا يتخذ الخطوات المناسبة ، ويقفز إلى العمل النهائي مباشرة .

بعض وسائل تنمية القدرات العقلية :

ولنرجع دائماً إلى القرآن الكريم الذي أشار ودعا للنظر في الكون وعظمته وعجائبه ، للسير في الأرض لمعرفة حال الأمم ، كيف ترقت ، ونهضت ، وكيف تراجعت وانهارت عندما صادمت الفطرة، ولم تتبع منهج

الأنبياء ، وللسير في الأرض لمعرفة نشوء الحضارات ، وما هي السنن التي تحكم المجتمعات ، ومقارنة ذلك بواقع المسلمين « وسنته تعالى : عادته التي يسوي بها الشيء ونظيره ، ولهذا قال ﴿**أكفاركم خير من أولئك أم لكم براءة في الزبر**﴾ وقال ﴿**احشروا الذين ظلموا وأزواجهم**﴾ أي أشباههم »[1].

ومن العوامل التي تساعد على تنمية القدرات العقلية : تعويد المسلم على منهج التفكير السليم ، وأن يتبع الخطوات الصحيحة في ذلك ، وأن يستخدم أجهزة التلقي كلها ، السمع والبصر والفؤاد ، ولا يقتصر على السماع الظاهري ، فلا بد من إدخال المعلومة إلى الفؤاد وتدبرها ﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً**﴾ [الإسراء/ ٣٦] .

وتدريب المسلم على مواجهة أخطائه حتى لا تقع في دائرة التفكير التبريري الذي يبحث عن مبررات خارجية وينسب الأخطاء لغيره .

وتدريب المسلم على التفكير العملي وترك الظن والهوى ﴿**إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس**﴾.

وتدريب المسلم على التفكير الشامل الذي يأتي عن طريق الصبر والممارسة والتأني [2] .

---

(١) ابن تيمية ، الفتاوى ، ١٣/٢٣.

(٢) انظر : ماجد الكيلاني ، مقومات الشخصية المسلمة.

العقل والعاطفة:

إن الحديث عن العقل والتعقل لا يعني أن شخصية الإنسان مقسمة إلى: العقل / العاطفة ... بهذا التبسيط . بل الأمور متداخلة ومعقدة أكثر مما نتصور ، ولكننا نقسمها ليتم تناول بعض مكونات الشخصية المسلمة ، وقد بدأنا الحديث عن القدرات العقلية لأهمية هذا الجانب في حياة المسلم وخاصة في العصور الأخيرة ، ولا يعني هذا أننا ظفرنا بحل المشكلة ، فالجانب الآخر وهو (العمل) هو الغاية من العقل السليم وهو المطلوب ، والعمل لا بد له من إرادة ، والإرادة محلها القلب ، قال تعالى ﴿**أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها**﴾ [الحج/٤٦] فجعل السمع للآذان ، والعقل للقلوب ، لأن العقل يراد به العلم والعمل، والعمل أصله الإرادة ، فالإيمان القوي هو الذي يدفع للعمل ، بل إن الإيمان يساعد العقل على التفكير السليم ، والعاطفة الصادقة هي التي تنقذ الإنسان من البلادة والخمول ، ونحن نرى كثيراً من أصحاب العقول يقعون في الكذب والهوى والنفاق ، فإنه إلى جانب الملكات العقلية هناك العاطفة والانفعالات الشعورية وغير الشعورية ، فمن يلجم هذا الشهوات؟ إنها الإرادة النابعة من القلب .

« وإذا نجحت إحدى الأفكار في تغيير سلوك البشر فذلك لأنها تنطوي على عناصر عاطفية إلى جانب العناصر المنطقية ، ولم يقو المنطق (وحده) يوماً من الأيام على تقويض حصون الجهل والكسل »[1] .

كان زعماء المعتزلة من هذا النمط من الناس الذين يعيشون على الكلام والجدل ، وعلى الفكر المحض ، فأصبحت قلوبهم قاسية ، فلم

---

(١) د. كاريل ، تأملات في سلوك الإنسان / ١٣٩.

يعيشوا هموم الناس ، ولا تلقفوا راية للجهاد ، وانحصروا في متعة (التنظـير)، وليس هكذا تقوم الأمم ، وتنشأ الحضارات وإنما بالإيمان العميق بالمبادئ التي أتـى بهـا الأنبيـاء وخـاتمهم محمـد صلـى اللـه عليـه وسـلم وبالشـهداء الذيـن يضحـون بحيـاتهم في سـبيل اللـه ، ونحـن نـرى اليـوم مـن يسـمون أنفسـهم بالمفكرين أبعد الناس عن الالتزام بالأخلاق الإسلامية أو الالتزام بالمبادئ التي يكتبونها فما إن تسنح لأحدهم الفرصة المادية حتى يتحول عما يدعو له .

إن التربيـة الصحيحـة هـي التـي تـوازن بـين العقـل والعاطفـة وتقـرب بينهما، فالعاطفة الصادقة هي التي تصل الإنسان بمصدر القوة الحقيقـي ، وإذا أردنا التغلب على الصعاب التي تعترضنا فإن الإيمان الذي ينبثـق مـن أعمـاق نفوسنا هو الذي يفعل ذلك . يقول إقبـال عـن المسـلم الـذي حـوى الكتـب الكثيرة ولكنه ما حوى القلب الملذوع والعاطفة المتأججة :

خلى الغمد ما في الكف مال وهذا الرف يهوي بالكتاب

إن العقل وحده دون اهتداء بالوحي والرسالة لا بد أن يقع في نزوات، وهو الـذي جعـل مفكـري أوربـا في القـرن التاسـع عشـر يـزرون بـالأخلاق والتقاليد الاجتماعية . يقول العلامة الشـنقيطي : « ولا شـك أن داء ضعـف العقل الذي يصيبه فيضعفه عن إدراك الحقائق ، وتمييز الحق من الباطل والنافع من الضار ، لا دواء له إلا بإنارته بنور الوحي » [1] .

(١) محمد أمين الشنقيطي ، أضواء البيان ، ٤١٦/٣.

عن الأخلاق نتحدث

يكتسب الحديث عن الأخلاق أهمية بالغة ، وذلك حيث تتردى العلاقات الاجتماعية ، ويتعامل الناس بالأثرة والمصالح المادية ، وحين تتطلع أمة للنهوض وتحقيق الشهادة والشهود .

والحديث عن الأخلاق ليس من نافلة القول وليس بالذي يأتي في الدرجة الثانية أو الثالثة ، بل هو من صميم شخصية المسلم وشخصية الأمة ، وإلا فلنتصور أمة فسدت أخلاقها ، ووقعت في الرذائل كيف سيكون حالها، وهل نتوقع نهوضها ؟.

كانت الآيات المكية في أوائل التنزيل تركز على التوحيد وتصحيح عقائد الناس ، وكانت تتحدث أيضاً عن الأخلاق والعلاقات الاجتماعية وكان من أوائل ما أنزل وصفاً للنفس الإنسانية ﴿**إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى**﴾ ومن أوائل ما أنزل ﴿**والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر**﴾ وتشنع الآيات المكية على الذين ﴿**يمنعون الماعون**﴾ والذين ﴿**يدعّون اليتيم**﴾ وتحث الناس على الرجوع لفطرتهم وما وضع فيها من التزكية للخير ﴿**إن الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره**﴾ ثم تتوالى السور المكية تدعو إلى خلق التواضع والاعتدال في الأمور ، وحسن الاستماع ، وترك العُجْب والكِبْر والافتراء والغيبة ﴿**واقصد في مشيك واغضض من صوتك**﴾ [لقمان/ ١٩].

﴿**فبشر عباد ، الذي يستمعون القول فيتبعون أحسنه**﴾ [الزمر/١٧-١٨] .

﴿**إنه لا يحب المستكبرين**﴾ [النحل / ٢٣].

﴿**فلا تزكوا أنفسكم**﴾ [النجم / ٣٢] .

﴿**ويل لكل همزة لمزة**﴾ [الهمزة / ١] .

بل إنها تحدد ملامح الشخصية السوية المقبولة :

﴿**وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً**﴾ [الفرقان / ٦٣].

﴿**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً**﴾ [الفرقان / ٦٧] .

وفي صحيح مسلم من حديث إسلام عمرو بن عبسه السلمي حين قدم مكة يسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قلت : ما أنت ؟ قال : أنا نبي فقلت : وما نبي ؟ قال: أرسلني الله ، فقلت : وبأي شيء أرسلك ؟ قال أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان وأن يوحد الله لا يشركَ به شيء »[١] وكان هذا في أول الدعوة وقد أُمر صلى الله عليه وسلم بجميع مكارم الأخلاق في قوله تعالى : ﴿**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**﴾ فالعفو معناه: اقبل من الناس في أخلاقهم ما أتى عفواً دون تكلف ، أي لا تطلب ما يشق عليهم . « وهذه الآية بيان لأصول الفضائل الأدبية ، وأساس التشريع ، وهي التي تلي في المرتبة أصول العقيدة المبنية على التوحيد »[٢].

(١) مسلم (٨٣٢).

(٢) رشيد رضا ، تفسير المنار ، ٥٣٣/٩.

ابن ثابت ، عبد الله بن الزبير ، سعيد بن العاص ، وعبدالرحمن بن الحارث ابن هشام) ، وبهذه العقلية الجماعية وهذا التربية أطاع المسلمون الخلفاء الراشدين ديناً وليس لرهبة أو رغبة ، وهذه من أعظم مزايا الخلافة الراشدة.

ولم تعد القبيلة هي المحور عند العربي ، ولا هي الوحدة السياسية والاجتماعية ، لقد نقلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مفهوم (الأمة) وهي نقله بعيدة جداً ، فالانتماء هنا إلى العقيدة وحمل الرسالة ، والانتساب إلى أمة عميقة الجذور ، إلى إبراهيم وسلسلة الأنبياء عليهم السلام ، وأصبح الشرف والانتساب إلى الأسماء الشرعية (مسلم، مؤمن، مهاجر، وأنصاري) وبقيت القبيلة وحدة اجتماعية للحفاظ على النسب وصلة الأرحام[1].

ثالثا : كان الصحابة ككل البشر يختلفون في طبائعهم وجبلاتهم المركوزة فيهم ، استفاد الرسول صلى الله عليه وسلم من هذا الاختلاف ليوجهه الوجهة السليمة ، ولم يحاول تغيير تلك الطبائع ليجعلها نسخة واحدة مكررة ، فأبو بكر يختلف عن عمر ، وعمر يختلف عن عثمان ، وعثمان عن علي ، رضي الله عنهم أجمعين ، والمعروف عن عثمان رضي لله عنه أنه كان حيياً ، وهي صفة حسنة « الحياء من الإيمان » وبعض الناس يعتبرها منقصة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يراعي هذا الصفة في تعامله مع عثمان فقد جاء في صحيح مسلم : « أن أبا بكر وعمر رضي الله

---

(١) رجعت القبيلة بعد أن انحسر ظلها ، ويكفي أن نقرأ عند ابن العماد في (شذرات الذهب) في حوادث سنة ١٧٥هـ) : « وفيها هاجت العصبية القبلية بين القيسية واليمنية بالشام ، ورأس القيسية يومئذ أبو الهيذام المري ، وقُتل بينهما بشر كثير ، واتصلت فتنتهما إلى زماننا هذا ... ». شذرات الذهب ، ٢/٣٣٩.

عنهما استأذنا على رسول الله وهو مضطجع على فراشه ، لابس مرط [1] عائشة فأذن لهما ، وقضى حاجتهما . ثم استأذن عثمان ، فأذن له وقال لعائشة : اجمعي عليك ثيابك ، وجلس فقضى حاجته وانصرف . فقالت عائشة : يا رسول الله مالي لم أرك فزعت لأبي بكر وعمر كما فزعت لعثمان ؟ قال صلى الله عليه وسلم : إن عثمان رجل حيي ، وإني خشيت إن أذنت له على تلك الحال أن لا يبلغ إلى حاجته ... » ؟.

وفي حديث الجاريتين اللتين كانتا تضربان الدف عند رسول الله في يوم عيد ، فلما دخل عمر رضي الله عنه هربتا ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « إن الشيطان ليفرق منك يا عمر » . إن شخصية عمر قوية مهيبة ، واكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتبسم ، ولا يعني هذا أن موقف عمر أفضل من موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم (معاذ الله) ولكن الرسول كما يعلل ابن تيمية كان رحيماً بالخلق فله منزلة عالية غير منزلة الصحابة .

أما الذي يريدون من أتباعهم نسخة عنهم فهذه تربية فاشلة مخالفة لطبائع الأشياء .

رابعا : قد يملك الإنسان من المواهب ما لا يملكه غيره ، والأصل في التربية أن تشجع هذا المواهب ، وأن تحيطها بالعناية والتوجيه حتى تصقل ويستفيد منها الجميع ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم عن شخصيات الصحابة وميزاتهم ومواهبهم ، وكان يمدح ما عند كل واحد منهم ، ويطلب من المسلمين الاستفادة من هذا الفروق ، عن أنس رضي الله

(١) المرط : كل ثوب غير مخيط تتلفع به المرأة.

عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أرحم أمتي بأمتي أبو بكر ، وأشدهم في أمر الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان بن عفان ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وأفرضهم زيد بن ثابت ، وأقرؤهم أبي بن كعب ، ولكل أمة أمين وأمين هذا الأمة أبو عبيدة بن الجراح »[1]. وقد طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من زيد بن ثابت تعلم السريانية حتى يترجم له ما يأتي من رسائل ، فتعلمها في خمسة عشر يوماً . واكتشف رسول الله صلى الله عليه وسلم المواهب القيادية عند خالد بن الوليد ، فأمّره على السرايا والجيوش بعد إسلامه مباشرة ، وقال عنه : سيف من سيوف الله ولم ينتظر أن يبلغ من العلم مبلغ معاذ أو عبد الله بن مسعود .

ويهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعنصر الشباب فقد بعث بعد بيعة العقبة الأولى بمصعب بن عمير إلى المدينة وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ، وبعث معاذ بن جبل قاضياً إلى الجند من مقاطعات اليمن، وجعل إليه قبض الصدقات (الزكاة) من المال (الجباة) باليمن ، وقد شهد معاذ بدراً وهو ابن إحدى وعشرين سنة . واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن حزم بن زيد الخزرجي على نجران وهو ابن سبع عشرة سنة ليفقههم في الدين ويعلمهم القرآن ويأخذ صدقاتهم . وبعد فتح مكة أمّر رسول لله صلى الله عليه وسلم على أهلها عتاب بن أَسِيد بن أبي العيص بن أمية ، وقد أسلم يوم الفتح وكان عمره نيفاً وعشرين سنة[2] . وبقيت هذه العلاقة الطيبة بين الشيوخ والشباب في عهد الخلفاء الراشدين فتقديم عمر رضي الله عنه لابن عباس في مجالسه ومشورته مشهور معروف ، وإن من

---

(١) صحيح سنن الترمذي ، ٢٢٧/٣.

(٢) ابن حجر ، الإصابة ، ٤٢٩/٤.

أسباب حيوية المجتمع وترقيه وجود هذا العلاقة التي يجب ألا تنقطع ، وعندما تفسد يقع الاختلال الذي لا تحمد عقباه . وهذا أمر بدهي ، فالشباب يمتلكون الحيوية والطموح وتحمل المشاق ، وأحياناً النظرة الجديدة . وعند الشيوخ التأني والنظر في العواقب والتجربة الطويلة . فإذا اجتمع هذا وذاك كان في ذلك خير كثير .

خامساً : ربى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه تربية القادة ، وأعدهم لتنمو شخصياتهم وليكونوا قادرين عل حمل رسالة الإسلام ، وعوّدهم على الصراحة فكانوا أحياناً يعترضون ويبدون رأياً مخالفاً ، فلا يقول لهم : كيف تفعلون هذا معي وأنا نبي .

استنكر عمر رضي الله عنه أن يصلي رسول الله صلى الله عليه وسلم على زعيم المنافقين عبد الله بن أبي ، يقول عمر : يا رسول الله ، أعلى عدو الله ؟ ورسول الله يبتسم ، حتى إذا أكثرت عليه، قال: « أخّر عني يا عمر » وذلك قبل نهيه عن الصلاة على المنافقين ، يقول عمر : فتعجبت من جرأتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] . وفي قصة بيعة العقبة قال أبو الهيثم ابن التَّيِهان يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالاً -يعني اليهود- وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ، فقال رسول لله صلى الله عليه وسلم : « بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم مني »[2].

سادساً : حتى لا يتعود المسلم على النقد والتجريح والوقوع في الكبار

---

(١) فتح الباري ، ٣٣٣/٨.

(٢) مسند أحمد ، ٤٦٢/٣.

من أهل العلم والفضل ، وربما توسوس له نفسه بأن يقارن ويرجح، حتى لا يقع هذا أدّب محمد صلى الله عليه وسلم أصحابه فقال لهم: « لا تخيروا بين الأنبياء »[1] ، وقال ما ينبغي لعبد أن يقول : « إني خير من يونس بن متّى »[2] ، وعن أنس قال : قال رجل لرسول لله صلى الله عليه وسلم : يا خير البرية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذاك إبراهيم»[3] ، مع أنه صلى الله عليه وسلم هو خير البرية أيضاً ، وهو الذي قال عن نفسه : « أنا سيد ولد آدم ، وأول من تنشق عنه الأرض ، وأول شافع ، وأول مشفع »[4] . لماذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابة : لا تخيروا بين الأنبياء ، حتى لا يتجرأ المسلم على المقارنات والتخيير أو تنقيص أحد من الأنبياء ، وإذا تكلم في الأنبياء فسيتكلم أيضاً في الصحابة ، ثم يتكلم في العلماء .

أدرك سلمان الفارسي هذه التربية العالية من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما روى أبو داود عن عمر بن قرة قال : « كان حذيفة بالمدائن ، فكان يذكر أشياء قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأناس من أصحابه في الغضب ، فينطلق ناس ممن سمع ذلك من حذيفة فيأتون سلمان ، فيذكرون له قول حذيفة ، فيقول سلمان: حذيفة أعلم بما يقول ، فيرجعون إلى حذيفة فيقولون له : قد ذكرنا قولك لسلمان ، فما صدقك ولا كذبك ، فأتي حذيفة سلمان وهو في مبقلة فقال : يا سلمان ، ما يمنعك أن تصدقني

---

(١) صحيح أبي داود ، ٨٨٣/٣.

(٢) صحيح أبي داود ، ٨٨٣/٣ ، وفي رواية في حديث قدسي : « لا ينبغي لعبد لي أن يقول .. » .

(٣) صحيح أبي داود ، ٨٨٤/٣.

(٤) المصدر السابق ، ٨٨٤/٣.

بما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟، فقال سلمان : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يغضب فيقول في الغضب لناس من أصحابه: ((أما تنتهي حتى تورث رجالاً حب رجال ، ورجالاً بغض رجال، وحتى توقع اختلافاً وفرقة ، والله لتنتهين أو لأكتبن إلى عمر ..))[1] .

سابعاً : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهتم بأمور الصحابة ويتفقدهم ، وهو دائم التفكير فيهم ، عن عمر رضي الله عنه قال : ((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمر عند أبي بكر الليلة كذاك في الأمر من أمور المسلمين وأنا معه ..)) [2] . وعندما استشهد أصحاب سرية الرجيع وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بفقد عاصم بن ثابت وأصحابه وجداً شديداً ، وكان لا يفاجئهم بالعتب ، ولا يثقل عليهم في لوم ، وإنما يغضي عن المخطئ حتى يجد الوقت المناسب ، فيقول له ما يريد في لطف ورفق ، فبعد رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر جاءه الخزرج لتهنئته بالنصر ، فقال سلمة بن سلامة بن وقش : ما الذي تهنئوننا به ، فوالله إن لقينا إلا عجائزاً صلعاً كالبدن المصقلة فنحرناها ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ((يا ابن أخي ، أولئك الملأ)) (الأشراف)[3] وشعر سلمة بعتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم له ، فقال: يا رسول الله لم تزل عني معرضاً منذ كنا بالروحاء فقال : ((إنك عمدت إلى نعمة من نعم الله (النصر) تزهدها فاعتذر سلمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم)) .

---

(١) صحيح أبي داود ، ٣/٨٨١ ، وقارن كيف أن الساحة الإسلامية مملوءة بحب (التصنيف) وكله مبني على أوهام ، وكيف تمتلئ الصدور بالكره والحب لشخصيات لا يعرفونها.

(٢) مسند أحمد ، ١/٣٥٤ ، تحقيق الأرناؤوط.

(٣) أنظر : أحمد العليمي ، مرويات غزوة بدر / ٣٠٤.

وكان صلى الله عليه وسلم يقدر مكانة كبار الصحابة وينبه الآخرين إلى هذه المكانة وأنها يجب أن تحترم وتقدر ، أخرج البخاري في حديث أبي إدريس الخولاني قال : سمعت أبا الدرداء يقول : كان بين أبي بكر وعمر محاورة، فأغضب أبو بكر عمر ، فانصرف عنه عمر مغضباً ، فأتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له ، فلم يفعل ، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو الدرداء : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما صاحبكم هذا فقد غامر »[1] قال : وندم عمر على ما كان منه ، فأقبل حتى يسلم وجلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقص على رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر ، قال أبو الدرداء : وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل أبو بكر يقول : والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل أنتم تاركون لي صاحبي ، إني قلت يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ، فقلتم كذبت ، وقال أبو بكر : صدقت »[2] . مر أبو سفيان بن حرب على طائفة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم : صهيب وبلال ، فقالوا : ما أخذت السيوف من عدو الله مأخذها ، فقال لهم أبو بكر : أتقولون هذا لسيد قريش ؟ وذكر أبو بكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال له : « لعلك أغضبتهم ؟ لأن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك ، قال لهم : يا إخوتي هل أغضبتكم ؟ قالوا : لا ، يغفر الله لك يا أبا بكر »[3] .

ثامناً : أرشدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى معالي الأمور ،

---

(١) غامر: أي خاصم غيره ، دخل في غمرة الخصومة وهي معظمها ، ابن الأثير ، النهاية ، ٣٨٤/٣.

(٢) الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ٦٨/٣.

(٣) ابن تيمية ، الفتاوى ، ٥٨/١٠.

ووجههم لحمل رسالة ، ومنها الإشارات التي قالها عندما ضرب الصخرة في غزوة الخندق وقال : « أرى قصور كسرى وقيصر » ، وعندما قاد الجيوش إلى تبوك . لقد أصبح المسلم عالمياً يحمل هم إسلام البشرية ، فأين الانحصار في مكة والمدينة ؟ بل أين الاكتفاء بالشام والعراق وفارس ومصر ؟ إن الدنيا بأسرها أصبحت مجالاً للدعوة. لقد دفن أبو أيوب الأنصاري عند أسوار القسطنطينية ، وانساح الصحابة شرقاً وغرباً، واستقروا في أماكنهم الجديدة.

هذه نماذج قليلة من توجيهات وتربية محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي القرآن والسيرة النبوية ما هو من المؤكد أنه يعيد صياغة الشخصية المسلمة ، لتكون على قدر المسؤولية ، وعلى قدر المهام الكبيرة المنوطة بها ..

على طريق الإصلاح

وصف السياسي والإداري التونسي أحمد بن أبي الضياف (١٢١٩ - ١٢٩١هـ / ١٨٠٤-١٨٧٦م) حال المسلمين في العصور الأخيرة ، وقبل أن تتحرك الهمم للإصلاح والنهوض ، قال : « حتى صار بعض أهل الجهات من المسلمين عبيد جباية ، ليس لهم من مسقط رؤوسهم وبلادهم ، ومنبت آبائهم وأجدادهم إلا إعطاء الدراهم والدنيا ، على مذلة وصغار ، حتى زهدوا في حب الوطن والدار ، وانسلخوا من أخلاق الأحرار » [(١)] .

قارب قرن على الانتهاء منذ انطلقت دعوات النهضة والإصلاح ، وكان السؤال الذي دار على الألسنة يومها : لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ؟ ولماذا هذا البطء في النهوض والتعثر في السير ؟ وإذا كان الإسلام هو الذي صنع العرب والشعوب التي دخلت في الإسلام أمة متجانسة وقادهم إلى حضارة إسلامية ، فلماذا لا يكون هو سبب الإقلاع في العصر الحديث ، ولماذا لم تقطف ثمار التضحيات التي قُدّمت في القرن الذي سبق، ولم تقم للإسلام دولة تمثله عقيدة وشريعة وتدافع عن الإسلام والمسلمين ؟

قام في أول هذا القرن علماء ومفكرون ، وكتّاب وخطباء يعالجون هذا الداء ، كل حسب تقديره واجتهاده ، فقد رأى بعضهم أن أهم قضية هي توحيد الأمة أمام الزحف الاستعماري ، وقام آخر يدعو إلى العلم والتعلم ، واهتم آخرون بالشورى وتقييد الحكومات لأن الاستبداد السياسي الذي جثم على صدر الأمة طويلاً كان سبباً للبلاء والكوارث ، يقول

---

(١) فهمي جدعان ، أسس التقدم عند مفكري الإسلام / ١٤٣.

الكواكبي : « وبفقدان الحرية تفقد الآمال ، وتبطل الأعمال ، وتموت النفوس وتتعطل الشرائع » [1] .

ويرى الشيخ رشيد رضا أن « الجمعيات السياسية والدينية والخيرية والمالية هي السبب الأول والعلة الأولى لكل ارتقاء وأن قوله تعالى ﴿**وما كان ربك ليهلك القرى وأهلها مصلحون**﴾ هو الذي ينبغي أن يكون المؤشر الحقيقي في مسألة الصعود والهبوط»[2] وركز البعض على إصلاح الأخلاق، وظن الشيخ محمد عبده أنه من الضروري إصلاح (علم الكلام) بوضع فلسفة جديدة ، وألف رسالة التوحيد ، وليس من شأن علم الكلام إصلاح النفوس وتغييرها ، ونعى عبد الله النديم على العلماء انصرافهم عن السياسة وإحجامهم عن الخوض فيها ، واحتل الجانب الدفاعي المساحة الأكبر مقابل التأسيس والدراسات ، وانشغل كثير من هؤلاء في الرد على المستشرقين أو أصحاب التيار التغريبي ، كما كثرت في هذا الحقبة الكتابات عن محاسن الإسلام وتبيين مزاياه ، وأنه يجمع بين العلم والدين[3] ووقف بعضهم من الحضارة الغربية موقف الضعف ومحاولة التلفيق ، وسُمّي هؤلاء (المعتذرون) ، وخلطوا بين القومية والدين أو بين الليبرالية الغربية والدين [4] ومن الواضح من هذه الأطروحات أو المحاولات أنه يغلب عليها النظرة الأحادية وتبسيط المشكلة وهي أعمق من هذا ، وهي بحاجة إلى مشروع متكامل .

---

(١) المصدر السابق / ٢٩١.

(٢) المصدر السابق / ٢٦٨ ، يذكر مالك بن نبي أن المستشرق الفرنسي (ماسينيون) ألقى محاضرة في باريس ، فذكر وفاة رشيد رضا ، ثم سكت هنيهة ، ثم تنفس الصعداء ، وكأنه استراح وقال : آه ، مات هذا الرجل ، انظر : مذكرات شاهد القرن / ٣٣٢.

(٣) انظر : الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر.

(٤) انظر : كتابات الشيخ عبد الحميد الزهراوي وكتابات محمد كرد علي.

قامت بعد ذلك حركات إسلامية ، وجمعيات إسلامية والهدف هو إحياء الأمة وتوعيتها ، وتطبيق الإسلام عملياً ، وظهر مفكرون وعلماء شاركوا مشاركة قوية في هذا الاتجاه ، وكان لهم تأثير بالغ على مسيرة الدعوة وكان من ايجابيات هذه الجهود أن أصبح الإسلام ملء السمع والبصر رغم ما يوجه إليه من كيد، وهذه الأجيال التي نشأت وتربت على الإسلام، وهذا الوضوح العقدي إذا ما قورن بالبدايات ، ولكن لا يكتمل هذا إلا بالنقد البناء ، وتقويم المرحلة السابقة ، وطرح رؤى مستقبلية . ولست من أنصار إرجاع الخلل إلى داء واحد ، ولا إرجاع العلاج إلى دواء واحد ، وسأكتفي بإبراز بعض القضايا التي أرى أهميتها في واقعنا المعاصر

أولاً :

هذه الأمة لها طبيعتها الخاصة ، فقد نشأت بالدين ، وهو الذي صاغها والذي جعلها تستمر ، فمحور الإصلاح في هذا الدين ، وكيف يُصلح الإنسان وكيف يبني النفوس ، لأن التدين الفاسد ، والغرور في الدين، والأخلاق المنحطة من أشد الأمراض فتكاً للأفراد والجماعات .

وضع القرآن الفرد المسلم في حالة نفسية واجتماعية تجعله مستعداً للأعمال الكبيرة ، وضعه بين الخوف والرجاء ، وهي حالة وسطية تستخرج الطاقات ، ولو مال به إلى طرفي القصد لتحطم أو قعد كسولاً يعيش على الآمال والأوهام [1] القرآن الكريم الذي فجّر الطاقات عند المسلم الأول هو

---

(١) من الطريف أن عالم الاجتماع الألماني (ماكس فيبر) عندما بحث في تطور الرأسمالية الصناعية، عزاها إلى صعود (البروتستنتية) في أمريكا وألمانيا وبريطانيا ، لأن هذا المذهب بنظره يضع الفرد بين حدّي الخوف والرجاء بعكس (الكاثوليكية) التي تغلب جانب الخوف.

الذي يستطيع ذلك مرة ثانية وثالثة ... إن طريقة مخاطبة القرآن للنفس الإنسانية ترفع مستوى الإيمان الذي يحتاجه الصعود ، أما علم الكلام والفلسفة وحب الجدل والردود والحواشي فقد أفسدت عقل وقلب المسلم ، فأصبح بارد العاطفة ضعيف العقل ، يجتر أمجاد الماضي ، ومع أن بعض العلماء والجمعيات رفعت شعاراً لها ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ ولكن هل استطاعت فعلاً وعلى أرض الواقع وضع البرامج التربوية النظرية والعملية ليمارس المسلم عملية التغيير .

لقد قامت جهود لا تنكر لإخراج المسلم الصالح ، ولكن إخراج المسلم المصلح الذي يملك المؤهلات للتغيير كان قليلاً ، وبقي في داخل الفرد المسلم ﴿**شركاء متشاكسون**﴾ لعدم إقامة التوازن بين الاشكاليات المطروحة (الدين والدنيا ، الثوابت والمتغيرات ، العقل والعاطفة) .

إن الفرد المسلم الذي أصيب بالعطب في فهمه للإسلام ليس معزولاً عن المجتمع حتى تظن أننا إذا أصلحناه ثم أصلحنا الأسرة فقد صلح المجتمع ثم الدولة . لنتصور كم كانت الطاقة الإيمانية عند المسلم في أحداث كالهجرة أو المؤاخاة ، وكيف كان يشعر أنه يشارك في أعمال عظيمة .

ثانياً :

افتقد العمل الإسلامي التحليل المنهجي للمرض ، وتكلم كثيراً عن ظواهر المرض « فاشتد في الجري نحو الصيدلي ، ليأخذ آلاف الزجاجات ليواجه آلاف الآلام »[1] كما افتقد التخطيط بعيد المدى والتخطيط

---

(١) مالك بن نبي ، شروط النهضة / ٥٩.

المرحلي، حتى يضع المناهج المناسبة التربوية والثقافية والاقتصادية .. ولم يبرز مشروع علمي متكامل ، بل إغراق في الجزئيات ، وبسبب عدم وضوح الرؤية اختلطت الأهداف بالوسائل ، وتحولت الوسائل إلى أهداف مثل التنظيم والهياكل الإدارية ، أو الوصول إلى الحكم ، وقفزت الدعوة عن مراحل كان عليها ألا تتخطاها ، نجد هذا في كثير من أعمال الكتاب الإسلاميين ، لا نرى فيها رائحة منهج ، وإنما أعمال خطابية وإذا كان فيه شيء من التوجه الثقافي أو الاقتصادي كانت جهداً فردياً وليست من عمل مؤسسات . هذا القصور في البحث والدراسات جعل العمل الإسلامي لا يستفيد من أعمال السابقين أي أن المعرفة والخبرة لا تتراكم ، لقد اكثر رشيد رضا من الحديث عن السنن ولا أظن أن الذين جاءوا بعده استفادوا كثيراً مما كتب ، ولعدم التوجيه الاقتصادي نجد المسلم ينفق أمواله في التوافه ويترك المشاريع ذات النفع العام، إنها مشكلة فهم الدين قبل أن تكون مشكلة مالية.

ثالثاً :

جاءت كلمة (الشورى) في القرآن الكريم لتعطي الإيحاء وكأنها من خصائص هذا الأمة ﴿**وأمرهم شورى بينهم**﴾ ومع أن الحركات الإسلامية ترفع شعار الشورى وتضعه في قائمة مؤسساتها إلا أن الشورى لم تمارس عملياً وعلى حقيقتها ، بل ناقش البعض في إلزاميتها واعتبرها (مُعْلمة) والذين اعتبروها ملزمة استطاعوا الالتفاف عليها كما تفعل الحكومات في بلدان المسلمين ، وتقيم البرلمانات الصورية فالقرارات والشؤون المهمة تكون جاهزة من قبل ، وبأساليب ملتوية تستطيع الحكومة أخذ غالبية الأصوات . وكأن العمل الإسلامي تأثر بالمناخ الاستبدادي الذي يعيشه من الخارج ، ولم

يستطع انتزاع نفسه من هذا المأزق الذي وقعت فيه الأمة من قرون خلت بل إن الاستشارة على حقيقتها تكاد أن تكون مفقودة ، وأعني استشارة أهل الرأي والعلم والاختصاص . وليس هذا موضع الحديث التفصيلي عن الشورى ، ولكن لنقل إن الشورى إذا أقيمت على الوجه الصحيح فإن فيها خيراً كثيراً .

رابعاً :

لم تستطع الحركة الإسلامية المعاصرة جعل الجماهير سنداً لها في تحقيق أهدافها ، بل ربما نظر البعض إلى هذه الجماهير نظرة احتقار وأنهم عوام جهلة لا يُعتمد عليهم ولا يُعتّد بهم ، وهذا من الأخطاء الكبرى فهذه الجماهير « مخزون إسلامي تشكل تاريخياً على مدى أربعة عشر قرناً ، إنها تختزن تاريخ أمة »[1] . ويقول الباحث عبد الرحمن شاكر وهو يتكلم عن الأديب الكبير محمود محمد شاكر رحمه الله : « وللعامة من أهل بلادنا إعزاز كبير عنده ، فهم إذا حرموا من التعليم ، فإنهم قد نجوا أيضاً في أحيان كثيرة من أن يصبحوا أدوات تدمير أمتهم »[2] .

والأدوات التي سُخّرت لتدمير الأمة هم بعض المتعلمين الذين يسمونهم (مثقفين) إن أعداء الإسلام يعلمون خطورة توعية الجماهير والتحامها مع العمل الإسلامي فيحاولون تشويه صورة الحركة الإسلامية وتصوير الشباب المسلم بأنه متزمت متشدد ليس في قلبه رحمة ، أو يبعدون الجماهير بإشغالها بلقمة العيش .

---

(١) الحركة الإسلامية ، رؤية مستقبلية / ٣٨٨ ، والكلام لمنير شفيق.

(٢) دراسات عربية وإسلامية / ٦٢٦.

إن استجابة الجماهير ليست بالأمر الهيّن ، فإن لديهم (حاسة سادسة) كما يقال ، ولهم إدراك لطيف لحقائق الأمور ، فلا بد أن يثقوا ، ولا بد أن تعرض الصورة أمامهم واضحة جلية لا غبش فيها ولا التواء ، يقول الشيخ رشيد رضا : « للإصلاح شرطان : أولهما : استعداد الأمة لقبوله والثاني : الزعيم الداعي مع الكفاءة والاضطلاع » [1] .

خامساً :

ورد في الأثر : « صنفان إذا صلحا صلح الناس ، وإذا فسدا فسد الناس ، العلماء والأمراء » ، ومن فضل الله على الأمة الإسلامية أنه عندما بدأ النقص من جانب الحكام وظهر منهم الاستبداد في السياسة والمال ، كان للعلماء دور كبير في تربية الناس وتعليمهم والوقوف بجانبهم في الأزمات والملمات . وهذا من مميزات تاريخنا فهو تاريخ حضارة وعلم وعلماء ، وعندما نتكلم عن الإصلاح والتغيير لا بد أن يكون على رأس الأمر العلماء الذين هم ورثة الأنبياء في إصلاح الخلق ، والجهر بالحق ، وهذه الأمة كما ذكرنا نشأت بالدين ، فلا بد أن يقودها العلماء العاملون ، فهم في الحقيقة زعماء الأمة ، ولا يكونون زعماء الأمة إلا إذا كانوا مستقلين يجمعون بين العمل والتقوى، وبين الشجاعة والذكاء ، يقول الشيخ رشيد رضا : « واعلم أنه لا مفسدة أضر على الدين وأبعث على إضاعة الكتاب ونبذه وراء الظهر. من جعل أرزاق العلماء ورتبهم في أيدي الأمراء والحكام ، فيجب أن يكون علماء الدين مستقلين تمام الاستقلال »[2].

---

(١) مجلة المنار ، المجلد ٤/٦٨٢.

(٢) تفسير المنار ، ٤/٢٨٣.

ولا بد من التفاف الناس حول العلماء ، ليكونوا مرجعية لهم ، لم تعط الحركة الإسلامية هذا الجانب الاهتمام الكافي ووجود عدد محدد في كل حركة لا يعني أنها أبرزت علماء مستقلين يستثنى من ذلك حركة علماء الجزائر ، حين استطاع الشيخ عبدالحميد بن باديس رحمه الله استقطاب غالب علماء الجزائر ، وإن هذه الأمة تحتاج إلى جيوش من العلماء.

سادساً :

الساحة الإسلامية فيها خطباء كُثر ، ولكن أولي الألباب المجددون الذي يتعمقون في فهم المشكلات وحلها هم قلة ، والمسلمون بسبب تركيبتهم العاطفية يميلون للخطبة، التي تلهب حماسهم، وتدغدغ مشاعرهم ، ولا يحبون من يبصرهم بعيوبهم ، ويدعوهم للتفكير وكدِّ الذهن . إن العمل الإسلامي مدعو لاعتماد صيغة المؤسسات المتخصصة في ميادين الفكر والعمل ، تفرز أصحاب الحكمة النظرية ، وابتكار الخطط اللازمة ، ويجب أن يعلموا أن وراء سياسة الدول الكبرى خبراء في السياسة والاقتصاد وعلم الاجتماع وعلم النفس هم الذين يُنظّرون ويقترحون للمستقبل . وهؤلاء ليسوا في الواجهة الأمامية ، ولكن بناءً على استشارتهم تُتخذ القرارات . إن إيجاد معاهد متخصصة لهذه الشؤون ليس بالأمر الصعب ، عندما يقتنع المسلمون أن ابتعادهم عن العمل المؤسسي وانحصارهم في العمل الفردي هو الذي أوصلهم إلى ما وصلوا إليه . إن في العالم الإسلامي شباباً لا ينقصهم الذكاء ولا العلم ، ولا ينقصهم حب دينهم وخدمة أمتهم ، ولكن لم تتح لهم الفرص ، فأصحاب العقلية السطحية وأصحاب القرار السياسي الأهوج لا يحبون من يقدم لهم الدراسات الواقعية المستقبلية ، وأنّى لهم الصبر على مثل هذا .

وطال مكثه بين المسلمين دخل الإيمـان في قلبـه »[1] . ثـم يقـارن بـين بعـض الفرق ، مبيناً محاسن بعضهم بالنسبة لغيرهم وهذا من إنصافه واعتداله وفهمه العميـق للإسـلام يقـول : « ولا ريـب أن المعتزلـة خـير مـن الرافضــة ومــن الخوارج، فإن المعتزلة تقر بخلافة الخلفــاء الأربعـة ، وكلهـم يتولـون أبـا بكـر وعمر وعثمــان ، وكذلـك المعـروف عنهـم أنهـم يتولـون عليـاً ، ويعظمـون الذنوب[2] ولا يرون اتخاذ دار غير دار الإسلام كـالخوارج ، ولهـم كتـب في تفسير القرآن ونصر الرسول صلـى اللـه عليـه وسـلم ، ولهـم محاسـن كثيرة يترجحون على الخـوارج والروافـض » [3] . ولـم يتعصـب ابـن تيميـة لأهـل الحديث والفقه حين ذكر أصنافاً من الناس يظنون عدم اشتمال القرآن والسنة على بيان أصول الدين ، قال: « وهذا كثير في كثير من المتفلسفة والمتكلمة ، وجهال أهل الحديث والمتفقهة والمتصوفة » [4] .

٣- التنبيـه للأخطـار المحدقـة بالأمـة الإسـلامية ، وتكـالب الأعــداء وحشـدهم لكـل وسـائل الإعلاميـة ، وحشـدهم لكـل الطاقـات الاقتصاديـة والعسكرية ، أليست هذه الأخطار مما يدعـو للتفكـير في أمـر وحـدة الصـف والتفكر لما يخطط ويدبر ؟ عندمـا توالـت الأخطـار الخارجيـة علـى المسـلمين زمن الاجتيـاح الصليبي لــم يقـم نـور الديـن وصـلاح الديـن وحدهمـا ، بـل جمعت الوحدة بين الأمراء والقواد والعلماء الذين التفوا حـول صـلاح الديـن فالائتلاف كان عاماً . وإذا كانت كل هـذه التحديـات المعـاصرة لـم توحـد

---

(١) الفتاوى ، ٩٦/١٣.

(٢) أي يعظمون الوقوع في الذنوب ، ويتحرجون منها.

(٣) الفتاوى ، ٩٦/١٣-٩٩.

(٤) درء تعارض العقل والنقل ، ٢٨/١.

المسلمين أو لم يفكروابطرائق الائتلاف التي يجب أن تكون شغلهم الشاغل، فمتى يتوحدون ؟

إن أسباب التعاون والائتلاف كثيرة ومتنوعة ، وإن عبارات (الوحدة – والائتلاف) لا تعني أن لا خلاف أبداً فهذه نظره خيالية ، وبعض الناس إذا سمع أو رأى أي خلاف ولو كان بسيطاً يتأسف ويبتعد ، وهذا خطأ بيّن ، لنفرض أن مُسْلمين اختلفا في أمر من أمور الدعوة ألا يمكن أن يؤجلا هذا الموضوع ويتفقا على أمور أخرى ؟ ثم يرجعان إلى الموضوع نفسه بعد فترة من الزمن . أليس من الممكن أننا إذا اتفقنا على إنجاز مشروع فلننجزه سوية وندع الأمور الأخرى التي نختلف عليها . لماذا لا يقبل أحدنا إلا أن يخرج منتصراً أو منهزماً ؟ هناك طريق ثالث ورابع ... وإذا لم نتفق فيمكن تأجيل الحوار ، ولا نؤسس عقوداً يتوجب علينا إنجازها ونحن لا نقدر عليها.

إن أصحاب العقول النيرة هم الذين يقدرون وجهات النظر المختلفة، هم الذين ينظرون إلى المستقبل ويخشون عواقب الخلاف. أراد الخليفة أبو جعفر المنصور إلزام الناس بكتاب (الموطأ) للإمام مالك ، ولكن الإمام رفض هذا العرض ، وقال : « يا أمير المؤمنين ، الناس في كل إقليم اتبعوا المجتهدين من علمائهم واطمأنوا لذلك » ، وهل تصدر مثل هذه الرحابة وهذا العقل الراجح إلا عن الإمام مالك ؟

إن قلة العلم هي التي تسبب ضيق الصدر ، والتربية الحزبية تؤجج الخلاف ، وإن أمثال هؤلاء لا تجتمع الأمة عليهم ، ولا هم يجتمعون مع بعضهم ، فالائتلاف لا يكون إلا برجال يجمعون بين العلم والنية الصادقة والعقل الواسع .

الواقعية ، هل هي شعار صحيح ؟

لا بد في البداية من إزاحة شيء من اللّبس الذي يقارن هذا المصطلح (الواقعية) فإن بعض الكلمات تحمل معان متغايرة ، أو يُحمّلها الناس المعاني التي يريدون . فعندما يقول كاتب إسلامي: إن الإسلام دين واقعي ، فإنما يعني أنه مناسب للفطرة البشرية ، ومدبر لأمور الإنسان في هذا الحياة الدنيا على طريق الاعتدال والوسطية ، وقد تعني الواقعية عند آخرين : الرضا بالواقع مهما كان شأنه ، مقبولاً كان أو مرذولاً ، أو الرضا بأنصاف الحلول والتنازل عن المبادئ ، ويستعملون هذا المصطلح ليبرروا قعودهم وضعفهم، ويكررون هذه العبارة (يجب أن نكون واقعيين) أي الرضا بالدون وبالأقل ، إنها واقعية الذين قالوا ﴿**لا تنفروا في الحر**﴾ أو الذين يفسرون آية ﴿**ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾ حسب مرادهم وأهوائهم ، وكل التنازلات التي قام بها الزعماء المتاجرون بقضية فلسطين في العصر الحديث كانت باسم هذه الواقعية . ليس هذا ما نريد التحدث عنه الذي نعنيه بالواقعية هو عدم الخضوع لأحلام الفكر ، أو للخيال الذي يجمح بنا بعيداً في أمور فيها صعوبة بالغة عند التطبيق وإن كانت صحيحة ، وذلك بسبب الظروف المحيطة بنا ، أو البيئة التي لا تساعد على الإنجاز ، أو بسبب التربية والأشخاص فنرضى بما يقارب أو يداني ما نريد ، ونسعى للحصول على الأكمل والأفضل إن استطعنا ، ولا نخضع لضغوط الذين يشتط بهم الخيال وينزعون منازع تاريخية، ويقفزون على الواقع والأحداث .

تطرّق الإمام الذهبي لهذا الإشكال في معرض الحديث عن الحاكم الذي يتصف بصفات الخلفاء الراشدين ، يقول : « ونحن آيسون اليوم من

وجود إمام راشد من سائر الوجــوه ، فـإن يَسّـرَ اللـه للأمـة بإمـام فيـه كـثرة محاسن وفيه مساوئ قليلة فَمَنْ لنا به ؟))[1] فهذا الإمام يتكلم بمنطق الواقع ، ويتمني حاكماً فيه مساوئ قليلة ، ولا يقول : لا بد أن يكـون مثـل الخلفـاء الراشدين أو لا نريده، فهو يعلم ظروف عصره ، وصعوبة الأمر ، وتراكمات الماضي .

أمثلة تاريخية :

١- عندما استُخلِف عمر بن عبد العزيز رحمه اللـه قـال : ((ألا وإنـي أعالج أمراً لا يعين عليه إلا الله ، قد فني عليه الكبير ، وكَبُر عليـه الصغـير ، حتى حسبوه ديناً لا يَرَون غيره)) وقال له ابنه عبد الملك : يا أمـير المؤمنـين، ألا تمضي كتاب الله وسنة نبيه ، ثم والله ما أبالي أن تغلي بي وبك القدور ! فأجابه : ((إني أروض الناس رياضة الصَّعْـب [2] ، أفتـح البـاب مـن السـنة ، فأضع الباب من الطمع ، فإن نفـروا للسـنة ، سـكنوا للطمـع ، ولـو عُمّـرت خمسين سنة لظننت أني لا أبلغ فيهم كل ما أريد)) [3]

وفي الموافقات أنه قال لابنه : ((وإني أخاف أن أحمل الحق على النـاس جملة فيدفعوه جملة ، ويكون من ذا فتنة)) [4] .

تحمّل رحمة الله أعباء الخلافة في نهاية القـرن الأول ، ومـع ذلـك فهـو يرى صعوبة إعــادة الحـق إلى نصابـه جملـة واحـدة ، فـاتخذ سياسـة (الخطـوة

---

(١) سير أعلام النبلاء ، ٤١٨/٢٠.

(٢) الصَّعب من الدواب : نقيض الذَّلول السَّهل.

(٣) المروزي ، السنة / ٢٦.

(٤) الشاطبي ، الموافقات ، ٩٣/٢.

خطوة) كم يقال اليوم ، ومع الترغيب تارة ، وحمل الناس على ما يكرهون تارة أخرى .

٢- عندما صمم السلطان صلاح الدين الأيوبي عل إلغاء الدولة الفاطمية (وكان وزيراً في مصر وقائداً للجيش الذي أرسله نور الدين محمود) لم يستطع مفاجأة المصريين بهذا الإلغاء ، واعتمد سياسة التدرج ، فقد أسس أثناء وزارته المدارس السنّية على المذاهب الأربعة ، وبنى مدرسة للشافعة على أنقاض أحد السجون سنة (٥٦٦ هـ) ثم أبطل الأذان بـ (حي على خير العمل) ثم أمر بعد ذلك بأن يذكر في الخطبة الخلفاء الراشدون ، ثم قطع الخطبة للفاطميين . وقد ساعده في هذا التدبير مستشاره ووزيره القاضي الفاضل الذي عاش في مصر ، وتدرب في دواوين الحكم .

٣- نظر علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى الخليفة العظيم عمر بن الخطاب وهو يداوي إبل الصدقة (الزكاة) بيده ، يداويها من مرض الجرب ، وفي يوم من أيام الصيف الملتهبة ، تعجب علي رضي الله عنه من قوة وأمانة عمر ، وقال قولته المشهورة : « لقد أتعبت الخلفاء بعدك » . وهذا ما وقع فعلاً فكان الناس يقولون : لماذا لا يكون فلان مثل عمر ، ولماذا لا يتصرف فلان مثل عمر ، وأنّى يكون ذلك ، وعمر رضي الله عنه هو المُحدَّث الملهم الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لم أر عبقرياً يفري فريه ». وهذا لا يعني القعود وعدم السعي للأفضل ، بل تجب المجاهدة والمحاولة للترقي دائماً .

من الهدي النبوي :

جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا نهيتكم

عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم)) [1] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((إن الدِّين يسر، ولن يُشادَّ الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة)) قال النووي في شرح مسلم: ((أي اطلبوا السداد واعملوا به ، وإن عجزتم فقاربوه ، أي اقربوا منه ، وقال القسطلاني: أي إن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل فاعملوا بما يقرب)) [2].

وجاء في مسند أحمد عن عبد الله بن السَّعدي قال : قال لي عمر : ألم أُحدّث أنك تلي من أعمال الناس أعمالاً ، فإذا أعطيت العمالة (الأجر) لم تقبلها ؟ قال : نعم ، قال : فما تريد إلى ذلك ؟ قال : أنا غنيٌّ لي أعْبدُ ولي أفراس ، أريد أن يكون عملي صدقة على المسلمين ، قال (عمر) : لا تفعل ، فإني كنت أفعل مثل الذي تفعل ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيني العطاء فأقول أعطه مَنْ هو أفقر إليه مني ، فقال : ((خذه ، فإما أن تموّله وإما أن تصّدق به ، وما أتاك الله من هذا المال وأنت غير مشرف له ولا سائله فخذه ، وما لا فلا تتبعه نفسك)) [3] .

فهذا توجيه نبوي يناسب الفطرة البشرية ، ويناسب الوسطية التي تراعي الحالة العادية من البشر ، خذ المال فإما أن تُثمّره أو تتصدق به . فالإنسان بحاجة إلى المال في حياته الدنيا ، وإذا تركه فقد يضطر إلى ما يشينه، وهذا ليس من هدي الإسلام .

---

(١) متفق عليه.

(٢) شرح النووي على مسلم ، ٢٦٢/١٧ ، وانظر أحمد الريسوني ، التقريب والتغليب / ١٦٦.

(٣) مسند الإمام أحمد ، ٣٨٠/١ ، تحقيق شعيب الأرناؤط.

من أقوال العلماء:

يقول ابن تيمية مبيناً جواز القبول بما هو أقل درجة إذا لم يتيسر الأعلى ، ويمثل لذلك ببعض الأمراء والحكام الذين يقيمون الجهاد ويستوفون الحدود ، ولكن لهم هوىً في أمور أخرى ، يقول عن الواحد من هؤلاء « لا تطيق نفسه إقامة الحدود ، وأمن السبل ، وجهاد العدو إلا بحظوظ منهي عنها ، من الاستئثار ببعض المال، والرياسة على الناس ، والمحاباة في القَسْم ، فهؤلاء وإن كان لا عذر لهم في فعلهم لحظوظ أنفسهم ، ولكن يؤمرون بالحسنات ، ويُرغّبون فيها ، وإن عُلم أنهم لا يفعلون إلا بالسيئات ... »[1] ويقول ابن القيم : « .. ونظير هذا لو غلب الحرام المحض أو الشبهة ، حتى لم يجد الحلال المحض ، فإنه يتناول الأمثل فالأمثل .. »[2] وكما يقال : بعض الشر أهون من بعض فأصحاب البدع الكبيرة إذا انتقلوا إلى بدعة صغيرة فهذا خير لهم.

الفطرة البشرية:

ما نقصده إذن بالواقعية هو مقاربة الصواب أو ما يليه ، لا أن نحلم بتحقيق كل شيء ، فإن لم نستطع قعدنا لا نحور ولا نكور ، وإذا لم نفقه هذا الأمر ، فإما أن نيأس وننسحب من الساحة ، أو نفقد الاكترات ونعيش عيشة اللامبالاة وإما أن ندخل في أمور نظن أننا قادرون عليها ، والحقيقة غير ذلك فنحطم أنفسنا.

لم يأت الإسلام بشيء لا تحتمله طاقة البشرية ، أو مصادماً للفطرة

---

(١) الفتاوى ، ٣٥/٢٨.

(٢) إعلام الموقعين ، ٤/١٩٧.

السليمة ، فإذا كانت النصرانية تقول : (أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعينكم، احنوا على من يبغضكم) « فهذا من أكبر المفاسد بإغراء الأقوياء بالضعفاء الخاضعين ، وإنك لتجد أعصى الناس لها من يسمون أنفسهم بالمسيحيين ، وامتثال هذا الأوامر لا يأتي في دين الفطرة ، والله يقول : ﴿**لا يكلف الله نفساً إلا وسعها**﴾ وإنما قرر القرآن الجمع بين العدل والفضل والمصلحة ﴿**وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين ، ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ... ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور**﴾ [الشورى/٤٠-٤٤] »[١] .

وأما الذين يطرحون مبادئ (اللاعنف) فهم أقرب إلى السذاجة والمبادئ الخيالية المجردة ، وقد ظهرت مثل هذه الآراء في الفكر الهندي عند (غاندي) .

كما أنها تُذكر في الأناجيل المحرفة ، بينما نجد القرآن يصرّ على محاربة الشر والظلم ﴿**والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون**﴾ [الشورى/٣٩] وأقر القتال بدلاً عن الرضوخ للمعاناة والظلم ﴿**أُذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير**﴾ [الحج / ٣٩].

يحب الإنسان الثناء الجميل -إذا كان ذلك لا يبطره أو يصيبه العُجب- فهل يكره الإسلام ذلك ؟ إذا رجعنا للقرآن فسوف نجد قوله تعالى ﴿**والذين يقولون : ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، واجعلنا للمتقين إماماً**﴾ ونجد قول إبراهيم عليه السلام ﴿**واجعل لي لسان صدق في**

---

(١) رشيد رضا ، الوحي المحمدي / ١٩٣.

الآخرين﴾ ففي الآية الأولى كان الدعاء بأن يجعله قدوة يأتم الناس به ، وفي الثانية أن يرزقه ثناءً حسناً في الآخرين.

إن الرجل ليعمل الخير فيسمع الذاكر له فيسرّه ذلك فهذا ليس من الرياء ، وإنما من طبيعة الإنسان وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل جمعاً من الصحابة عن الشجرة المباركة ، فوقع في نفس عبدالله ابن عمر أنها : النخلة ولكنه لم يقل ذلك فقال له والده عمر رضي الله عنه: لأن تكون قلتها أحب إلى من كذا وكذا ..

وفي تفسير قوله تعالى ﴿**كلوا ثمره**﴾ أي ابدأوا بأنفسكم وكلوا منه قبل أن تعطوا حقه يوم حصاده .

يحب الإنسان الانتماء لوحدة اجتماعية أو سياسية ولذلك لم يلغ الإسلام القبيلة كما يظن بعض الناس ، ولكنه حارب العصبية الجاهلية ، وأقر القبيلة كوحدة اجتماعية ، يتعارف الناس فيها بأنسابهم وتزيد من صلة الرحم ، ويبقى معيار التفاضل في التقوى ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾.

الواقعية في الدعوة :

أليس من الأسلم التدرج في رفع مستوى المسلم بخطوات وئيدة ثابتة، ويكون ذلك أرسخ وأحرى أن تدوم حالته التي وصل إليها ، والذي أسلم حديثاً هل نقدم له الإسلام جملة وتفصيلاً أم نأخذه بالأصول قبل الفروع حتى يتمكن الإسلام من قلبه ، ثم نتدرج به ونقدم له التفصيلات ، فيكون ذلك عوناً له على استقرار نفسه وفهم دينه ، وإذا وقع للمسلمين شيء من التمكين في الأرض وحكموا بلداً بعد عشرات السنين من البعد عن تطبيق

الشريعة هل يبدأون بالتحسينات قبل الضروريات والحاجيات أم يبدأون بأصول الإسلام وأركان الإسلام ، وتحقيق مقاصد الشريعة من حفظ النفوس وحفظ المال ، ثم إقامة مشاريع العلم والتعلم ، وكيفية حماية الدولة الناشئة ، وإذا أتيحت للمسلم حرية يستفيد منه في نشر دعوته وإقامة شعائر دينه ، فهل يرفضها لأنها لا تحقق له كل المطلوب أم يقبلها لأنها تحقق بعض المطلوب ؟ يقول الشيخ رشيد رضا : « والحرية تبيح بعض المنكر ولا تمنع شيئاً من المعروف أهون من عبودية (استعباد الناس) تنهى عن المعروف وتأمر بالمنكر ، فالعبودية تطفئ نور الفطرة البشرية ، والحرية تظهر مبلغ استعداد القوى الإنسانية »[1] .

الغايات والوسائل :

من القواعد المسلّمة أن الوسائل تأخذ حكم الغايات والمقاصد ، فما أدى إلى واجب فهو واجب ، وما أدى إلى محظور فهو محظور ، الغايات المشروعة لا تعني استخدام وسائل غير مشروعة ، هذا هو الأصل ، فهل لهذا الأصل من استثناء فتباح بعض الوسائل في سبيل الغايات ؟

إن هذا التساؤل يثير علامات استفهام كبيرة ، فمبدأ (الغاية تبرر الوسيلة) مبدأ مرفوض ، وقد اشتهر الكاتب الإيطالي (ميكافيلي) بالدعوة لهذا المبدأ في كتابه (الأمير) الذي يدعو فيه إلى استخدام جميع الوسائل غير الأخلاقية في سبيل تثبيت حكم الدولة ، وأصبح هذا المبدأ عَلَماً عليه ، فيقال عن السياسة الانتهازية سياسة (ميكافيلية) ووصفها بعضهم بـ(الحيوانية السياسية) ، وقد حذر ميكافيلي من الأمراء الخياليين الذين يتعلقون بالصدق

---

(١) مجلة المنار ، م٦/٦.

والرأفة ، ويمدح الأمراء الذين تمكنوا بواسطة المكر والدهاء ، وتغلبوا على خصومهم ، واحتفظوا بدولتهم ، وأطلق عبارته المشهورة (الغاية تبرر الوسيلة) .

دأب كثير من الكتاب الإسلاميين على مهاجمة هذا المبدأ وإنكاره بصفة مطلقة ، لأن الإسلام لا يقبل لتحقيق أغراضه إلا وسائل شريفة . وهذا صحيح من حيث الأصل ، ولكن رفضه جملة وتفصيلاً سيفوت كثيراً من المصالح المعتبرة ، وسوف يؤدي إلى جمود في العمل الإسلامي ، فإذا كانت الغاية عند (ميكافيلي) وغيره هي الدنيا ، وأن تكون كلمة الأمير هي العليا ، فإنها عند المسلم غير هذا ، أن تكون كلمة الله هي العليا ، وقد أباح الشرع وسائل غير مشروعة في الأصل وأعطاها حكم المشروعية بالنظر إلى غاياتها ، مع وجود الضوابط والحدود التي تمنع الخروج على ما حدده الشرع.

١- جاء في سورة الحشر وهي تتحدث عن غزوة بني النضير : **﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله ، وليخزي الفاسقين﴾** [الحشر / ٥] أي قد أذن الله لكم في قطع نخيل بني النضير ، ليلجأ العدو للاستسلام ، وما بقي من هذا النخيل فهو آيل إلى المسلمين مما أفاء الله عليهم ، قال ابن عاشور :« ومن هذا الآية أخذ المحققون من الفقهاء أن تحريق دار العدو وتخريبها وقطع ثمارها جائز إذا دعت إليه المصلحة المتعينة »[1] فالقيام بأعمال التخريب هو إفساد في الأرض لا يحبه الله ، ولكن الله أَذِن فيه إذا كان ذلك يروع الخونة المتآمرين .

٢- في بعض الأحوال يباح الكذب ، بل هو واجب كما قال الشيخ

---

(١) التحرير والتنوير ، ٧٦/٢٨.

العز بن عبد السلام في حال أن يختبأ بريء معصوم الدم عند شخص ، وهناك من يريد قتله فيجب على ذلك الشخص الكذب وأن لا يدل عليه ، أو تكون عند إنسان وديعة فيأتي ظالم يسأل عنها ليأخذها ، فيجب عليه أن ينكرها لأن حفظ الودائع واجب[1] ، وقد ورد في السيرة أن الحجاج بن علاط استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكذب على زوجته وعلى قومه في مكة وإشعارهم أنه يعادي الإسلام حتى يستطيع أخذ ماله والخروج بها من مكة ، فأذن له الرسول صلى الله عليه وسلم . قال ابن القيم معقباً على قصة الحجاج « جواز الكذب على نفسه وعلى غيره إذا كان يتوصل بذلك إلى حقه في غير مضرة بالغير ، والضرر الذي لحق المسلمين في مكة [2] يسير في جنب المصلحة التي حصلت بالكذب » [3] .

٣- إذا كان الرجل صاحب حق مؤكد ، وتعذر الحصول على حقه إلا ببذل رشوة جاز له بذلها ، وكذلك من نزلت به مظلمة ولا سبيل إلى دفعها إلا ببذل الرشوة جاز له ذلك ، وإنما يأثم الآخذ فقط [4] .

٤- قال القرافي من علماء المالكية : قد تكون وسيلة المحرم غير محرمة إذا أفضت إلى مصلحة راجحة ، كالتوسل إلى فداء الأسرى بدفع المال للكفار ، وكدفع مال للرجل المحارب (قاطع الطريق) حتى لا يقتل صاحب المال.

---

(١) أحمد الريسوني ، التقريب والتغليب / ٤٣٦.

(٢) لأنه ذكر لهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد خسر المعركة في خيبر وأنه سيأخذ ماله ليشتري الغنائم التي غنمها الكفار من المسلمين ، فحزن المسلمون لهذا الخبر الذي افتعله الحجاج.

(٣) زاد المعاد ، ٣/٣٥٠.

(٤) أحمد الريسوني ، التقريب والتغليب / ٤٣٨.

وكل هذه الأمور التـي جاز فيها اتخاذ وسائل هي في الأصل غير مشروعة تضبط بالضوابط التالية :

١- أن تُستنفذ الوسائل المشروعة .

٢- أن تُستعمل الوسائل المحظورة بالقدر اللازم .

٣- أن لا يكون في ذلك ظلم لأحد .

٤- أن لا يكون في ذلك مفسدة أعظم من المصلحة المترتبة .

الآمال الكبيرة :

من الأنماط الفكرية السائدة ، ذلك الحديث الدائم : عما يجب أن يكون وليس عما هو كائن موجود بين أيدينا ، ومحاولة رصده وتحليله ومن ثَمَّ الانتقال إلى مرحلة أفضل وأكمل ، والحديث عما يجب أن يكون ليس مرفوضاً كله ، فالإنسان يتمنى ويرجو ، ولكن المرفوض أن يكون الخطاب كله على هذه الشاكلة ، من غير نظر إلى الواقع المعاش ، فالناس فيهم الضعيف وفيهم السباق بالخير ، وفيهم صاحب النفس اللوامة ، فلا يطلب من الجميع أن يكونوا على مستوى واحد .

قفز الإسلاميون في العصر الحديث عن واقع المجتمعات الإسلامية وضرورة تحليل بُنى ومكونات هذا المجتمعات وكيفية التعامل معها وواقع التخلف الذي ضُرب عليها ، وأن لا بد من معرفة سنن التغيير في الأنفس والمجتمعات ، قفزوا عن هذا الواقع ليتكلموا في أهداف دونها أهوال ، واصطدموا بما لم يكن في الحسبان ، ذلك لأنهم عاشوا صوراً متخيلة في الأذهان أو من خلال الكتب ، ولم يدرسوا دراسة وافية طبيعة العصر وطبيعة الشعوب والدول ، والإمكانات المتاحة ، والانطلاق من هذا كله .

ليس هذا تثبيطاً للهمم لكنها دعوة لمعرفة الحقائق ومنهج (سددوا وقاربوا) ومحاولة للجمع بين الواقع والآمال العريضة .

هكذا ربى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه

إن جيل الصحابة رضوان الله عليهم أفضل أجيال الإسلام ، بل أفضل أجيال البشرية ما عدا الأنبياء ، إنهم جيل فريد حقاً اختارهم الله لنبيه كما ذكر ذلك عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، كيف ربى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الجيل ؟ كيف تعامل معهم ؟ كيف رفعهم من خلال التوجيهات القرآنية إلى مراتب عالية فأصبحوا نماذج يقتدى بها ، نماذج واقعية وليست خيالية ، ففيهم الفقهاء والعلماء والقادة العسكريين والقادة الإداريين ، وكلهم قد تربوا بالجهد والجهاد والمعاناة والصبر ، وإذا كان من الصعب أن يتكرر ذلك الجيل فإن الواجب يقتضي معرفة مكامن عظمتهم وأسباب أفضليتهم ومحاولة التأسي بهم ، فلقد انتفعت بهم البشرية نفعاً عظمياً ، فكل خير إلى يوم القيامة فللصحابة أجر فيه ، فهم الذين نشروا الإسلام وبلغوه إلى الناس .

نماذج من هذه التربية :

أولاً : كان العربي من أسرع الناس غضباً لنفسه ولأسرته ولقبيلته ، وكان من السهل أن تقوم حروب ودماء بسبب كلمة أو غلطة ، فهو يأنف أن يؤذي أو يهان (وهذه خصلة طيبة) ولكن الدعوة وخاصة في أول أمرها تتطلب نوعاً من الأشخاص فيه رسوخ وهدوء يفكر ويخطط ولا يستجيب لردود الأفعال ، فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يدربهم على الصبر والأناة والحلم حتى هدأت نفوسهم ، وأصبحوا طوع أمر الله وأمر رسوله ، وفي بيئة مثل مكة ، كان من السهل أن يفجر المسلمون مشكلة في كل بيت،

ويمكن أن تتسع هذا المشكلة وتفشل خطة الدعوة في التجميع والتربية والإعداد ، ولكن انضباط الصحابة جعل الأمور تسير كما خُطّط لها ، وكان قدوتهم في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أوذي من قبل سفهاء قريش وعاد إلى منزله ولم تظلم الدنيا في عينيه ، وتسرع فاطمة رضي الله عنها تبكي وتغسل رأس أبيها وتسب سفهاء قريش فيقول لها صلى الله عليه وسلم : « لا تبك فإن الله مانع أبيك » . هذه التربية هي التي جعلت المسلمين ينتقلون من مرحلة لأخرى بهدوء أعصاب وروية فكر ، بعيداً عن الأعمال الهوجاء والتسرع غير المنضبط .

ثانياً : من ملامح الشخصية العربية أنها شديدة الفردية ، لم تتعود على الأعمال الجماعية الكبيرة أو التعاون المنظم وعلى رأس ذلك الدولة ، وقد افتخر العربي عند كسرى بأنه لا يملكهم أحد ، أي ليس عندهم دولة ، وهذه الفردية تكونت نتيجة عوامل كثيرة ومنها الأنفة من الخضوع (وهذه إيجابية في أحد جوانبها) واليوم نلاحظ هذا الظاهرة عندما ابتعد كثير من الناس عن هدي الإسلام ومنهجه في التعاون والتآلف ، فنرى العربي أو المسلم بشكل عام ينجح فرداً أكثر مما ينجح جماعة .

ربى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابة على الألفة والمحبة وشدد في ذلك ودربهم على التعاون والاجتماع حتى وصلوا إلى درجة عالية جداً وهي (المؤاخاة) وكل هذا بتأييد من الله سبحانه وتعالى ﴿**لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف**﴾ ووصل المسلمون إلى أرقى أنواع العمل الجماعي حين كلف عثمان رضي الله عنه لجنة خاصة لكتابة المصحف وتوحيد المسلمين عليه وكانت هذا اللجنة مؤلفة من (زيد

ابن ثابت ، عبد الله بن الزبير ، سعيد بن العاص ، وعبدالرحمن بن الحارث ابن هشام) ، وبهذه العقلية الجماعية وهذا التربية أطاع المسلمون الخلفاء الراشدين ديناً وليس لرهبة أو رغبة ، وهذه من أعظم مزايا الخلافة الراشدة.

ولم تعد القبيلة هي المحور عند العربي ، ولا هي الوحدة السياسية والاجتماعية ، لقد نقلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مفهوم (الأمة) وهي نقله بعيدة جداً ، فالانتماء هنا إلى العقيدة وحمل الرسالة ، والانتساب إلى أمة عميقة الجذور ، إلى إبراهيم وسلسلة الأنبياء عليهم السلام ، وأصبح الشرف والانتساب إلى الأسماء الشرعية (مسلم، مؤمن، مهاجر، وأنصاري) وبقيت القبيلة وحدة اجتماعية للحفاظ على النسب وصلة الأرحام[1].

ثالثا : كان الصحابة ككل البشر يختلفون في طبائعهم وجبلاتهم المركوزة فيهم ، استفاد الرسول صلى الله عليه وسلم من هذا الاختلاف ليوجهه الوجهة السليمة ، ولم يحاول تغيير تلك الطبائع ليجعلها نسخة واحدة مكررة ، فأبو بكر يختلف عن عمر ، وعمر يختلف عن عثمان ، وعثمان عن علي ، رضي الله عنهم أجمعين ، والمعروف عن عثمان رضي لله عنه أنه كان حيياً ، وهي صفة حسنة « الحياء من الإيمان » وبعض الناس يعتبرها منقصة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يراعي هذا الصفة في تعامله مع عثمان فقد جاء في صحيح مسلم : « أن أبا بكر وعمر رضي الله

---

(١) رجعت القبيلة بعد أن انحسر ظلها ، ويكفي أن نقرأ عند ابن العماد في (شذرات الذهب) في حوادث سنة ١٧٥هـ) : « وفيها هاجت العصبية القبلية بين القيسية واليمنية بالشام ، ورأس القيسية يومئذ أبو الهيذام المري ، وقُتل بينهما بشر كثير ، واتصلت فتنتهما إلى زماننا هذا ... ». شذرات الذهب ، ٣٣٩/٢.

عنهما استأذنا على رسول الله وهو مضطجع على فراشه ، لابس مرط [1] عائشة فأذن لهما ، وقضى حاجتهما . ثم استأذن عثمان ، فأذن له وقال لعائشة : اجمعي عليك ثيابك ، وجلس فقضى حاجته وانصرف . فقالت عائشة : يا رسول الله مالي لم أرك فزعت لأبي بكر وعمر كما فزعت لعثمان ؟ قال صلى الله عليه وسلم : إن عثمان رجل حيي ، وإني خشيت إن أذنت له على تلك الحال أن لا يبلغ إلى حاجته ... » ؟.

وفي حديث الجاريتين اللتين كانتا تضربان الدف عند رسول الله في يوم عيد ، فلما دخل عمر رضي الله عنه هربتا ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « إن الشيطان ليفرق منك يا عمر » . إن شخصية عمر قوية مهيبة ، واكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتبسم ، ولا يعني هذا أن موقف عمر أفضل من موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم (معاذ الله) ولكن الرسول كما يعلل ابن تيمية كان رحيماً بالخلق فله منزلة عالية غير منزلة الصحابة .

أما الذي يريدون من أتباعهم نسخة عنهم فهذه تربية فاشلة مخالفة لطبائع الأشياء .

رابعا : قد يملك الإنسان من المواهب ما لا يملكه غيره ، والأصل في التربية أن تشجع هذا المواهب ، وأن تحيطها بالعناية والتوجيه حتى تصقل ويستفيد منها الجميع ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم عن شخصيات الصحابة وميزاتهم ومواهبهم ، وكان يمدح ما عند كل واحد منهم ، ويطلب من المسلمين الاستفادة من هذا الفروق ، عن أنس رضي الله

---

(١) المرط : كل ثوب غير مخيط تتلفع به المرأة.

عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أرحم أمتي بأمتي أبو بكر ، وأشدهم في أمر الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان بن عفان ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وأفرضهم زيد بن ثابت ، وأقرؤهم أبي بن كعب ، ولكل أمة أمين وأمين هذا الأمة أبو عبيدة بن الجراح »[1]. وقد طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من زيد بن ثابت تعلم السريانية حتى يترجم له ما يأتي من رسائل ، فتعلمها في خمسة عشر يوماً . واكتشف رسول الله صلى الله عليه وسلم المواهب القيادية عند خالد بن الوليد ، فأمّره على السرايا والجيوش بعد إسلامه مباشرة ، وقال عنه : سيف من سيوف الله ولم ينتظر أن يبلغ من العلم مبلغ معاذ أو عبد الله بن مسعود .

ويهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعنصر الشباب فقد بعث بعد بيعة العقبة الأولى بمصعب بن عمير إلى المدينة وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ، وبعث معاذ بن جبل قاضياً إلى الجند من مقاطعات اليمن، وجعل إليه قبض الصدقات (الزكاة) من المال (الجباة) باليمن ، وقد شهد معاذ بدراً وهو ابن إحدى وعشرين سنة . واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن حزم بن زيد الخزرجي على نجران وهو ابن سبع عشرة سنة ليفقههم في الدين ويعلمهم القرآن ويأخذ صدقاتهم . وبعد فتح مكة أمّر رسول لله صلى الله عليه وسلم على أهلها عتاب بن أَسِيد بن أبي العيص بن أمية ، وقد أسلم يوم الفتح وكان عمره نيفاً وعشرين سنة[2] . وبقيت هذه العلاقة الطيبة بين الشيوخ والشباب في عهد الخلفاء الراشدين فتقديم عمر رضي الله عنه لابن عباس في مجالسه ومشورته مشهور معروف ، وإن من

---

(١) صحيح سنن الترمذي ، ٢٢٧/٣.

(٢) ابن حجر ، الإصابة ، ٤٢٩/٤.

أسباب حيوية المجتمع وترقيه وجود هذا العلاقة التي يجب ألا تنقطع ، وعندما تفسد يقع الاختلال الذي لا تحمد عقباه . وهذا أمر بدهي ، فالشباب يمتلكون الحيوية والطموح وتحمل المشاق ، وأحياناً النظرة الجديدة . وعند الشيوخ التأني والنظر في العواقب والتجربة الطويلة . فإذا اجتمع هذا وذاك كان في ذلك خير كثير .

خامساً : ربى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه تربية القادة ، وأعدهم لتنمو شخصياتهم وليكونوا قادرين عل حمل رسالة الإسلام ، وعوّدهم على الصراحة فكانوا أحياناً يعترضون ويبدون رأياً مخالفاً ، فلا يقول لهم : كيف تفعلون هذا معي وأنا نبي .

استنكر عمر رضي الله عنه أن يصلي رسول الله صلى الله عليه وسلم على زعيم المنافقين عبد الله بن أبي ، يقول عمر : يا رسول الله ، أعلى عدو الله ؟ ورسول الله يبتسم ، حتى إذا أكثرت عليه، قال: « أخّر عني يا عمر » وذلك قبل نهيه عن الصلاة على المنافقين ، يقول عمر : فتعجبت من جرأتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] . وفي قصة بيعة العقبة قال أبو الهيثم ابن التِّيهان يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالاً -يعني اليهود- وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ، فقال رسول لله صلى الله عليه وسلم : « بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم مني »[2].

سادساً : حتى لا يتعود المسلم على النقد والتجريح والوقوع في الكبار

---

(١) فتح الباري ، ٣٣٣/٨.

(٢) مسند أحمد ، ٤٦٢/٣.

من أهل العلم والفضل ، وربما توسوس له نفسه بأن يقارن ويرجح، حتى لا يقع هذا أدّب محمد صلى الله عليه وسلم أصحابه فقال لهم: « لا تخيروا بين الأنبياء »[1] ، وقال ما ينبغي لعبد أن يقول : « إني خير من يونس بن متّى »[2] ، وعن أنس قال : قال رجل لرسول لله صلى الله عليه وسلم : يا خير البرية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذاك إبراهيم»[3] ، مع أنه صلى الله عليه وسلم هو خير البرية أيضاً ، وهو الذي قال عن نفسه : « أنا سيد ولد آدم ، وأول من تنشق عنه الأرض ، وأول شافع ، وأول مشفع »[4] . لماذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابة : لا تخيروا بين الأنبياء ، حتى لا يتجرأ المسلم على المقارنات والتخيير أو تنقيص أحد من الأنبياء ، وإذا تكلم في الأنبياء فسيتكلم أيضاً في الصحابة ، ثم يتكلم في العلماء .

أدرك سلمان الفارسي هذه التربية العالية من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما روى أبو داود عن عمر بن قرة قال : « كان حذيفة بالمدائن ، فكان يذكر أشياء قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأناس من أصحابه في الغضب ، فينطلق ناس ممن سمع ذلك من حذيفة فيأتون سلمان ، فيذكرون له قول حذيفة ، فيقول سلمان: حذيفة أعلم بما يقول ، فيرجعون إلى حذيفة فيقولون له : قد ذكرنا قولك لسلمان ، فما صدقك ولا كذبك ، فأتي حذيفة سلمان وهو في مبقلة فقال : يا سلمان ، ما يمنعك أن تصدقني

---

(١) صحيح أبي داود ، ٨٨٣/٣.

(٢) صحيح أبي داود ، ٨٨٣/٣ ، وفي رواية في حديث قدسي : « لا ينبغي لعبد لي أن يقول .. » .

(٣) صحيح أبي داود ، ٨٨٤/٣.

(٤) المصدر السابق ، ٨٨٤/٣.

بما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟، فقال سلمان : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يغضب فيقول في الغضب لناس من أصحابه: ((أما تنتهي حتى تورث رجالاً حب رجال ، ورجالاً بغض رجال، وحتى توقع اختلافاً وفرقة ، والله لتنتهين أو لأكتبن إلى عمر ..))[1] .

سابعاً : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهتم بأمور الصحابة ويتفقدهم ، وهو دائم التفكير فيهم ، عن عمر رضي الله عنه قال : ((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمر عند أبي بكر الليلة كذاك في الأمر من أمور المسلمين وأنا معه ..))[2] . وعندما استشهد أصحاب سرية الرجيع وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بفقد عاصم بن ثابت وأصحابه وجداً شديداً ، وكان لا يفاجئهم بالعتب ، ولا يثقل عليهم في لوم ، وإنما يغضي عن المخطئ حتى يجد الوقت المناسب ، فيقول له ما يريد في لطف ورفق ، فبعد رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر جاءه الخزرج لتهنئته بالنصر ، فقال سلمة بن سلامة بن وقش : ما الذي تهنئوننا به ، فوالله إن لقينا إلا عجائزاً صلعاً كالبدن المصقلة فنحرناها ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ((يا ابن أخي ، أولئك الملأ)) (الأشراف)[3] وشعر سلمة بعتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم له ، فقال: يا رسول الله لم تزل عني معرضاً منذ كنا بالروحاء فقال : ((إنك عمدت إلى نعمة من نعم الله (النصر) تزهدها فاعتذر سلمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم)) .

---

(١) صحيح أبي داود ، ٨٨١/٣ ، وقارن كيف أن الساحة الإسلامية مملوءة بحب (التصنيف) وكله مبني على أوهام ، وكيف تمتلئ الصدور بالكره والحب لشخصيات لا يعرفونها.

(٢) مسند أحمد ، ٣٥٤/١ ، تحقيق الأرناؤوط.

(٣) أنظر : أحمد العليمي ، مرويات غزوة بدر / ٣٠٤.

وكان صلى الله عليه وسلم يقدر مكانة كبار الصحابة وينبه الآخرين إلى هذه المكانة وأنها يجب أن تحترم وتقدر ، أخرج البخاري في حديث أبي إدريس الخولاني قال : سمعت أبا الدرداء يقول : كان بين أبي بكر وعمر محاورة، فأغضب أبو بكر عمر ، فانصرف عنه عمر مغضباً ، فأتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له ، فلم يفعل ، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو الدرداء : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما صاحبكم هذا فقد غامر »[1] قال : وندم عمر على ما كان منه ، فأقبل حتى يسلم وجلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقص على رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر ، قال أبو الدرداء : وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل أبو بكر يقول : والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل أنتم تاركون لي صاحبي ، إني قلت يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ، فقلتم كذبت ، وقال أبو بكر : صدقت »[2] . مر أبو سفيان بن حرب على طائفة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم : صهيب وبلال ، فقالوا : ما أخذت السيوف من عدو الله مأخذها ، فقال لهم أبو بكر : أتقولون هذا لسيد قريش ؟ وذكر أبو بكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال له : « لعلك أغضبتهم ؟ لأن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك ، قال لهم : يا إخوتي هل أغضبتكم ؟ قالوا : لا ، يغفر الله لك يا أبا بكر »[3] .

ثامناً : أرشدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى معالي الأمور ،

---

(١) غامر: أي خاصم غيره ، دخل في غمرة الخصومة وهي معظمها ، ابن الأثير ، النهاية ، ٣٨٤/٣.

(٢) الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ٦٨/٣.

(٣) ابن تيمية ، الفتاوى ، ٥٨/١٠.

ووجههم لحمل رسالة ، ومنها الإشارات التي قالها عندما ضرب الصخرة في غزوة الخندق وقال : « أرى قصور كسرى وقيصر » ، وعندما قـاد الجيـوش إلى تبوك . لقد أصبح المسلم عالمياً يحمل هم إسلام البشرية ، فـأين الانحصـار في مكة والمدينة ؟ بل أين الاكتفاء بالشام والعراق وفارس ومصر ؟ إن الدنيـا بأسرها أصبحت مجالاً للدعوة. لقد دفـن أبـو أيـوب الأنصـاري عنـد أسـوار القسطنطينية ، وانساح الصحابة شرقاً وغرباً، واستقروا في أماكنهم الجديدة.

هذه نماذج قليلة من توجيهات وتربية محمـد صلى الله عليـه وسـلم ، وفي القرآن والسيرة النبوية ما هـو مـن المؤكـد أنـه يعيـد صياغـة الشخصية المسلمة ، لتكون على قدر المسؤولية ، وعلى قدر المهام الكبيرة المنوطة بها ..

على طريق الإصلاح

وصف السياسي والإداري التونسي أحمد بن أبي الضياف (١٢١٩ - ١٢٩١هـ / ١٨٠٤-١٨٧٦م) حال المسلمين في العصور الأخيرة ، وقبل أن تتحرك الهمم للإصلاح والنهوض ، قال : « حتى صار بعض أهل الجهات من المسلمين عبيد جباية ، ليس لهم من مسقط رؤوسهم وبلادهم ، ومنبت آبائهم وأجدادهم إلا إعطاء الدراهم والدنيا ، على مذلة وصغار ، حتى زهدوا في حب الوطن والدار ، وانسلخوا من أخلاق الأحرار » [1] .

قارب قرن على الانتهاء منذ انطلقت دعوات النهضة والإصلاح ، وكان السؤال الذي دار على الألسنة يومها : لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ؟ ولماذا هذا البطء في النهوض والتعثر في السير ؟ وإذا كان الإسلام هو الذي صنع العرب والشعوب التي دخلت في الإسلام أمة متجانسة وقادهم إلى حضارة إسلامية ، فلماذا لا يكون هو سبب الإقلاع في العصر الحديث ، ولماذا لم تقطف ثمار التضحيات التي قُدّمت في القرن الذي سبق، ولم تقم للإسلام دولة تمثله عقيدة وشريعة وتدافع عن الإسلام والمسلمين ؟

قام في أول هذا القرن علماء ومفكرون ، وكتّاب وخطباء يعالجون هذا الداء ، كل حسب تقديره واجتهاده ، فقد رأى بعضهم أن أهم قضية هي توحيد الأمة أمام الزحف الاستعماري ، وقام آخر يدعو إلى العلم والتعلم ، واهتم آخرون بالشورى وتقييد الحكومات لأن الاستبداد السياسي الذي جثم على صدر الأمة طويلاً كان سبباً للبلاء والكوارث ، يقول

---

(١) فهمي جدعان ، أسس التقدم عند مفكري الإسلام / ١٤٣.

الكواكبي : « وبفقدان الحرية تفقد الآمال ، وتبطل الأعمال ، وتموت النفوس وتتعطل الشرائع » [1] .

ويرى الشيخ رشيد رضا أن « الجمعيات السياسية والدينية والخيرية والمالية هي السبب الأول والعلة الأولى لكل ارتقاء وأن قوله تعالى ﴿**وما كان ربك ليهلك القرى وأهلها مصلحون**﴾ هو الذي ينبغي أن يكون المؤشر الحقيقي في مسألة الصعود والهبوط»[2] وركز البعض على إصلاح الأخلاق، وظن الشيخ محمد عبده أنه من الضروري إصلاح (علم الكلام) بوضع فلسفة جديدة ، وألف رسالة التوحيد ، وليس من شأن علم الكلام إصلاح النفوس وتغييرها ، ونعى عبد الله النديم على العلماء انصرافهم عن السياسة وإحجامهم عن الخوض فيها ، واحتل الجانب الدفاعي المساحة الأكبر مقابل التأسيس والدراسات ، وانشغل كثير من هؤلاء في الرد على المستشرقين أو أصحاب التيار التغريبي ، كما كثرت في هذا الحقبة الكتابات عن محاسن الإسلام وتبيين مزاياه ، وأنه يجمع بين العلم والدين[3] ووقف بعضهم من الحضارة الغربية موقف الضعف ومحاولة التلفيق ، وسُمّي هؤلاء (المعتذرون) ، وخلطوا بين القومية والدين أو بين الليبرالية الغربية والدين [4] ومن الواضح من هذه الأطروحات أو المحاولات أنه يغلب عليها النظرة الأحادية وتبسيط المشكلة وهي أعمق من هذا ، وهي بحاجة إلى مشروع متكامل .

---

(١) المصدر السابق / ٢٩١.

(٢) المصدر السابق / ٢٦٨ ، يذكر مالك بن نبي أن المستشرق الفرنسي (ماسينيون) ألقى محاضرة في باريس ، فذكر وفاة رشيد رضا ، ثم سكت هنيهة ، ثم تنفس الصعداء ، وكأنه استراح وقال : آه ، مات هذا الرجل ، انظر : مذكرات شاهد القرن / ٣٣٢.

(٣) انظر : الرسالة الحميدية للشيخ حسين الجسر.

(٤) انظر : كتابات الشيخ عبد الحميد الزهراوي وكتابات محمد كرد علي.

قامت بعد ذلك حركات إسلامية ، وجمعيات إسلامية والهدف هو إحياء الأمة وتوعيتها ، وتطبيق الإسلام عملياً ، وظهر مفكرون وعلماء شاركوا مشاركة قوية في هذا الاتجاه ، وكان لهم تأثير بالغ على مسيرة الدعوة وكان من ايجابيات هذه الجهود أن أصبح الإسلام ملء السمع والبصر رغم ما يوجه إليه من كيد، وهذه الأجيال التي نشأت وتربت على الإسلام، وهذا الوضوح العقدي إذا ما قورن بالبدايات ، ولكن لا يكتمل هذا إلا بالنقد البناء ، وتقويم المرحلة السابقة ، وطرح رؤى مستقبلية . ولست من أنصار إرجاع الخلل إلى داء واحد ، ولا إرجاع العلاج إلى دواء واحد ، وسأكتفي بإبراز بعض القضايا التي أرى أهميتها في واقعنا المعاصر

أولاً :

هذه الأمة لها طبيعتها الخاصة ، فقد نشأت بالدين ، وهو الذي صاغها والذي جعلها تستمر ، فمحور الإصلاح في هذا الدين ، وكيف يُصلح الإنسان وكيف يبني النفوس ، لأن التدين الفاسد ، والغرور في الدين، والأخلاق المنحطة من أشد الأمراض فتكاً للأفراد والجماعات .

وضع القرآن الفرد المسلم في حالة نفسية واجتماعية تجعله مستعداً للأعمال الكبيرة ، وضعه بين الخوف والرجاء ، وهي حالة وسطية تستخرج الطاقات ، ولو مال به إلى طرفي القصد لتحطم أو قعد كسولاً يعيش على الآمال والأوهام [1] القرآن الكريم الذي فجّر الطاقات عند المسلم الأول هو

---

(١) من الطريف أن عالم الاجتماع الألماني (ماكس فيبر) عندما بحث في تطور الرأسمالية الصناعية، عزاها إلى صعود (البروتستنتية) في أمريكا وألمانيا وبريطانيا ، لأن هذا المذهب بنظره يضع الفرد بين حدّي الخوف والرجاء بعكس (الكاثوليكية) التي تغلب جانب الخوف.

الذي يستطيع ذلـك مرة ثانية وثالثة ... إن طريقة مخاطبة القرآن للنفس الإنسانية ترفع مستوى الإيمان الذي يحتاجه الصعود ، أما علم الكلام والفلسفة وحب الجدل والردود والحواشي فقد أفسدت عقل وقلب المسلم ، فأصبح بارد العاطفة ضعيف العقل ، يجتر أمجاد الماضي ، ومع أن بعض العلماء والجمعيات رفعت شعاراً لها ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ ولكن هل استطاعت فعلاً وعلى أرض الواقع وضع البرامج التربوية النظرية والعملية ليمارس المسلم عملية التغيير .

لقد قامت جهود لا تنكر لإخراج المسلم الصالح ، ولكن إخراج المسلم المصلح الذي يملك المؤهلات للتغيير كان قليلاً ، وبقي في داخل الفرد المسلم ﴿**شركاء متشاكسون**﴾ لعدم إقامة التوازن بين الاشكاليات المطروحة (الدين والدنيا ، الثوابت والمتغيرات ، العقل والعاطفة) .

إن الفرد المسلم الذي أصيب بالعطب في فهمه للإسلام ليس معزولاً عن المجتمع حتى تظن أننا إذا أصلحناه ثم أصلحنا الأسرة فقد صلح المجتمع ثم الدولة . لنتصور كم كانت الطاقة الإيمانية عند المسلم في أحداث كالهجرة أو المؤاخاة ، وكيف كان يشعر أنه يشارك في أعمال عظيمة .

ثانياً :

افتقد العمل الإسلامي التحليل المنهجي للمرض ، وتكلم كثيراً عن ظواهر المرض « فاشتد في الجري نحو الصيدلي ، ليأخذ آلاف الزجاجات ليواجه آلاف الآلام »[1] كما افتقد التخطيط بعيد المدى والتخطيط

---

(١) مالك بن نبي ، شروط النهضة / ٥٩.

المرحلي، حتى يضع المناهج المناسبة التربوية والثقافية والاقتصادية .. ولم يبرز مشروع علمي متكامل ، بل إغراق في الجزئيات ، وبسبب عدم وضوح الرؤية اختلطت الأهداف بالوسائل ، وتحولت الوسائل إلى أهداف مثل التنظيم والهياكل الإدارية ، أو الوصول إلى الحكم ، وقفزت الدعوة عن مراحل كان عليها ألا تتخطاها ، نجد هذا في كثير من أعمال الكتاب الإسلاميين ، لا نرى فيها رائحة منهج ، وإنما أعمال خطابية وإذا كان فيه شيء من التوجه الثقافي أو الاقتصادي كانت جهداً فردياً وليست من عمل مؤسسات . هذا القصور في البحث والدراسات جعل العمل الإسلامي لا يستفيد من أعمال السابقين أي أن المعرفة والخبرة لا تتراكم ، لقد اكثر رشيد رضا من الحديث عن السنن ولا أظن أن الذين جاءوا بعده استفادوا كثيراً مما كتب ، ولعدم التوجيه الاقتصادي نجد المسلم ينفق أمواله في التوافه ويترك المشاريع ذات النفع العام، إنها مشكلة فهم الدين قبل أن تكون مشكلة مالية.

ثالثاً :

جاءت كلمة (الشورى) في القرآن الكريم لتعطي الإيحاء وكأنها من خصائص هذا الأمة ﴿**وأمرهم شورى بينهم**﴾ ومع أن الحركات الإسلامية ترفع شعار الشورى **وتضعه في قائمة مؤسساتها** إلا أن الشورى لم تمارس عملياً **وعلى حقيقتها** ، **بل ناقش البعض في** إلزاميتها واعتبرها (مُعْلِمة) والذين اعتبروها **ملزمة استطاعوا الالتفاف** عليها كما تفعل الحكومات في بلدان **المسلمين** ، **وتقيم البرلمانات** الصورية فالقرارات والشؤون المهمة تكون **جاهزة من قبل** ، وبأساليب ملتوية تستطيع الحكومة أخذ غالبية الأصوات . و**كأن العمل** الإسلامي تأثر بالمناخ الاستبدادي الذي يعيشه من الخارج ، ولم

يستطع انتزاع نفسه من هذا المأزق الذي وقعت فيه الأمة من قرون خلت بل إن الاستشارة على حقيقتها تكاد أن تكون مفقودة ، وأعني استشارة أهل الرأي والعلم والاختصاص . وليس هذا موضع الحديث التفصيلي عن الشورى ، ولكن لنقل إن الشورى إذا أقيمت على الوجه الصحيح فإن فيها خيراً كثيراً .

رابعاً :

لم تستطع الحركة الإسلامية المعاصرة جعل الجماهير سنداً لها في تحقيق أهدافها ، بل ربما نظر البعض إلى هذه الجماهير نظرة احتقار وأنهم عوام جهلة لا يُعتمد عليهم ولا يُعتّد بهم ، وهذا من الأخطاء الكبرى فهذه الجماهير « مخزون إسلامي تشكل تاريخياً على مدى أربعة عشر قرناً ، إنها تختزن تاريخ أمة »[1] . ويقول الباحث عبد الرحمن شاكر وهو يتكلم عن الأديب الكبير محمود محمد شاكر رحمه الله : « وللعامة من أهل بلادنا إعزاز كبير عنده ، فهم إذا حرموا من التعليم ، فإنهم قد نجوا أيضاً في أحيان كثيرة من أن يصبحوا أدوات تدمير أمتهم »[2] .

والأدوات التي سُخّرت لتدمير الأمة هم بعض المتعلمين الذين يسمونهم (مثقفين) إن أعداء الإسلام يعلمون خطورة توعية الجماهير والتحامها مع العمل الإسلامي فيحاولون تشويه صورة الحركة الإسلامية وتصوير الشباب المسلم بأنه متزمت متشدد ليس في قلبه رحمة ، أو يبعدون الجماهير بإشغالها بلقمة العيش .

---

(١) الحركة الإسلامية ، رؤية مستقبلية / ٣٨٨ ، والكلام لمنير شفيق.

(٢) دراسات عربية وإسلامية / ٦٢٦.

إن استجابة الجماهير ليست بالأمر الهيّن ، فإن لديهم (حاسة سادسة) كما يقال ، ولهم إدراك لطيف لحقائق الأمور ، فلا بد أن يثقوا ، ولا بد أن تعرض الصورة أمامهم واضحة جلية لا غبش فيها ولا التواء ، يقول الشيخ رشيد رضا : « للإصلاح شرطان : أولهما : استعداد الأمة لقبوله والثاني : الزعيم الداعي مع الكفاءة والاضطلاع » [1] .

خامساً :

ورد في الأثر : « صنفان إذا صلحا صلح الناس ، وإذا فسدا فسد الناس ، العلماء والأمراء » ، ومن فضل الله على الأمة الإسلامية أنه عندما بدأ النقص من جانب الحكام وظهر منهم الاستبداد في السياسة والمال ، كان للعلماء دور كبير في تربية الناس وتعليمهم والوقوف بجانبهم في الأزمات والملمات . وهذا من مميزات تاريخنا فهو تاريخ حضارة وعلم وعلماء ، وعندما نتكلم عن الإصلاح والتغيير لا بد أن يكون على رأس الأمر العلماء الذين هم ورثة الأنبياء في إصلاح الخلق ، والجهر بالحق ، وهذه الأمة كما ذكرنا نشأت بالدين ، فلا بد أن يقودها العلماء العاملون ، فهم في الحقيقة زعماء الأمة ، ولا يكونون زعماء الأمة إلا إذا كانوا مستقلين يجمعون بين العمل والتقوى، وبين الشجاعة والذكاء ، يقول الشيخ رشيد رضا : « واعلم أنه لا مفسدة أضر على الدين وأبعث على إضاعة الكتاب ونبذه وراء الظهر. من جعل أرزاق العلماء ورتبهم في أيدي الأمراء والحكام ، فيجب أن يكون علماء الدين مستقلين تمام الاستقلال »[2].

---

(١) مجلة المنار ، المجلد ٦٨٢/٤.

(٢) تفسير المنار ، ٢٨٣/٤.

ولا بد من التفاف الناس حول العلماء ، ليكونوا مرجعية لهم ، لم تعط الحركة الإسلامية هذا الجانب الاهتمام الكافي ووجود عدد محدد في كل حركة لا يعني أنها أبرزت علماء مستقلين يستثنى من ذلك حركة علماء الجزائر ، حين استطاع الشيخ عبدالحميد بن باديس رحمه الله استقطاب غالب علماء الجزائر ، وإن هذه الأمة تحتاج إلى جيوش من العلماء.

سادساً :

الساحة الإسلامية فيها خطباء كُثر ، ولكن أولي الألباب المجددون الذي يتعمقون في فهم المشكلات وحلها هم قلة ، والمسلمون بسبب تركيبتهم العاطفية يميلون للخطبة، التي تلهب حماسهم، وتدغدغ مشاعرهم ، ولا يحبون من يبصرهم بعيوبهم ، ويدعوهم للتفكير وكدِّ الذهن . إن العمل الإسلامي مدعو لاعتماد صيغة المؤسسات المتخصصة في ميادين الفكر والعمل ، تفرز أصحاب الحكمة النظرية ، وابتكار الخطط اللازمة ، ويجب أن يعلموا أن وراء سياسة الدول الكبرى خبراء في السياسة والاقتصاد وعلم الاجتماع وعلم النفس هم الذين يُنظّرون ويقترحون للمستقبل . وهؤلاء ليسوا في الواجهة الأمامية ، ولكن بناءً على استشارتهم تُتخذ القرارات . إن إيجاد معاهد متخصصة لهذه الشؤون ليس بالأمر الصعب ، عندما يقتنع المسلمون أن ابتعادهم عن العمل المؤسسي وانحصارهم في العمل الفردي هو الذي أوصلهم إلى ما وصلوا إليه . إن في العالم الإسلامي شباباً لا ينقصهم الذكاء ولا العلم ، ولا ينقصهم حب دينهم وخدمة أمتهم ، ولكن لم تتح لهم الفرص ، فأصحاب العقلية السطحية وأصحاب القرار السياسي الأهوج لا يحبون من يقدم لهم الدراسات الواقعية المستقبلية ، وأنّى لهم الصبر على مثل هذا .

خاتمة :

البدايات الصحيحة تؤتي أكلها بإذن ربها ، وإذا فسدت البدايات لم يلحق الصلاح النتائج ، وعلى المسلم أن يتقن البدايات ولو لم يدرك النتائج . البدايات الصحيحة تكون من القلب ، فهو ملك الأعضاء الذي إذا صلح صلح الجسد كله ، وكذلك قال الصحابة : تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن . فدخل الإيمان في القلب ، وامتزج فيه حب الله والعبودية لله، والنوايا الخالصة لله . وكان الحديث في المراحل الأولى من الدعوة عن اليوم الآخر وعن الأخلاق ، وكان ذلك دافعاً قوياً للانعتاق من العادات السيئة ، وحين يضعف هذا الإيمان الممتزج بحب الله وحب رسوله ، لا بد أن يهوي الإنسان إلى الأرض ، فالإيمان هو الذي يستطيع الرقي بالمسلم إلى درجات عالية . وهكذا يجب أن نفكر في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « ولكنكم غثاء كغثاء السيل » وأن سبب هذا الغثائية هو « حب الدنيا وكراهية الموت ». وحب الدنيا ليس المقصود به السعي للرزق أو التمتع فيها باعتدال، ولكن عندما تصبح النفس دنيئة تتنازل عن كرامتها ودينها في سبيل العيش الرخيص وعندما يختل الميزان عند المسلم ، فيعظّم أرباب الدنيا ويتقرَّب إليهم ويترك ويهمل أهل العلم والفضل . ولذلك كان هذا المدح للسيد الكبير أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ، لقد أخرج حب الدنيا من قلبه وأصبح من الذين قال فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن كان في الساقة كان في الساقة » ومن الذين « لو أقسم على الله لأبره » .

ألم يقل الصحابي الجليل عمران بن حصين عن الذين يتقاتلون على الرئاسة زمن بني أمية : « والله إن فلاناً إن يريد إلا الدنيا وإن فلاناً إن يريد إلا الدنيا » .

الإرادة هي الأساس ، وعندما لا تكون نزيهة ، فإن العقل يصبح وسيلة لتحكيم الأهواء . عندما نفتش عن أنفسنا ونقوم بالعمل الذي يرضي الله ، عندما نجاهد أنفسنا للتخلص من أمراضها حتى تتمحض للمبدأ وليس للأشخاص أو الأشياء ، عندها تكون البدايات الصحيحة .

المراجع

١- ابن تيمية :

- الفتاوى

- اقتضاء الصراط المستقيم : ت ناصر العقل - الرياض ١٩٩٦م.

- درء تعارض العقل والنقل : ت رشاد سالم - الرياض ١٩٧٩م.

٢- ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب : دار ابن كثير - دمشق ١٩٨٦م.

٣- ابن القيم :

- زاد المعاد في هدي خير العباد : ت الأرناؤط - مؤسسة الرسالة.

- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي : ت محمد جميل غازي - مطبعة المدني.

٤- ابن عطية : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : وزارة الأوقاف - قطر.

٥- ابن الأزرق : بدائع السلك في طبائع الملك :ت علي سامي النشار - بغداد ١٩٧٧م.

٦- ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون : ت علي عبد الواحد وافي - دار النهضة - مصر.

٧- ابن أبي الدنيا : مكارم الأخلاق : نشرة جيمز بلمي ١٩٧٣م.

٨- أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين : دار الجيل - بيروت.

٩- أحمد بن حنبل : مسند الإمام أحمد : مؤسسة الرسالة - ت الأرناؤط.

١٠- أحمد بن عبد السلام : دراسات في مصطلح السياسة عند العرب : الشركة التونسية ١٩٧٨م.
١١- أحمد العليمي : مرويات غزوة بدر : المدينة ١٩٨٠م.
١٢- أحمد الريسوني : نظرية التقريب والتغليب : مكناس ١٩٩٤م.
١٣- التجاني عبد القادر : أصول الفكر السياسي في القرآن المكي.
١٤- الجويني عبد الملك : الغياثي : نشرة عبد العظيم الديب ١٤٠١هـ.
١٥- جارودي روجيه : أمريكا طليعة الانحطاط : دار الشروق ١٩٩٩م.
١٦- خير الدين الزركلي : الأعلام : دار العلم للملايين ١٩٨٩م.
١٧- الخزاعي على بن محمد : تخريج الدلالات السمعية : دار الغرب الإسلامي ١٩٨٥م.
١٨- الذهبي، محمد بن أحمد: سير أعلام النبلاء : ت الأرناؤط ١٩٨١م.
١٩- رشيد رضا :
- تفسير المنار
- مجلة المنار
- الوحي المحمدي : المكتب الإسلامي ١٩٧٩م.
٢٠- روبرت أغروس : العلم في منظوره الجديد : عالم المعرفة - الكويت ١٩٨٩م.
٢١- السخاوي : الإعلان بالتوبيخ عن ذم التاريخ : ت روز نشال - بدون تاريخ.
٢٢- ستيفن كوفي : العادات السبع للقادة الإداريين : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٩٥م.

٢٣- شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون : دار العلم للملايين ١٩٨١م.
٢٤- على عزت بيكوفيتش : الإسلام بين الشرق والغرب : مؤسس بافاريا ١٩٩٤م.
٢٥- عبد الرحمن عبد الخالق: الطريق إلى وحدة الأمة : جمعية إحياء التراث.
٢٦- عبد الله الحوشاني : منهج ابن تيمية في الدعوة : دار إشبيلية ١٩٩٦م.
٢٧- عبد الرحمن المحمود : موقف ابن تيمية من الأشاعرة : مكتبة الرشد ١٩٩٥م.
٢٨- عبد الكريم بكار : مدخل إلى التنمية المتكاملة : دار المسلم ١٩٩٧م.
٢٩- فهمي جدعان :
- أسس التقدم عند مفكري الإسلام : بيروت ١٩٨١م.
- الطريق إلى المستقبل : بيروت ١٩٩٦م.
٣٠- كاريل ، الكسس : تأملات في سلوك الإنسان
٣١- محمود محمد شاكر : رسالة في الطريق إلى ثقافتنا : مكتبة الخانجي ١٩٨٧م.
٣٢- مالك بن نبي : شروط النهضة : دار الفكر
٣٣- مالك بدري : التفكر من المشاهدة إلى الشهود : المعهد العالمي ١٩٩٣م.
٣٤- محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن : مؤسسة الرسالة ١٩٨٥م.
٣٥- محمد بن الحسن الشيباني: الكسب : نشرة سهيل زكار ١٩٨٠م.

٣٦- محمد ناصر الدين الألباني :
- صحيح سنن الترمذي
- صحيح سنن أبي داود
- صحيح الجامع الصغير
٣٧- محمد بن إبراهيم الوزير : العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم : دار البشير ١٩٨٥م.
٣٨- محمد جابر الأنصاري : العرب والسياسة : دار الساقي ١٩٩٨م.
٣٩- محمد العبدة : التعصب الأوروبي أم التعصب الإسلامي : دار ابن حزم ١٩٩٥م.
٤٠- محمد الغزالي : جدد حياتك : دار القلم ١٩٩٨م.
٤١- ماجد عرسان الكيلاني : مقومات الشخصية المسلمة كتاب الأمة - ١٤١١هـ.

المحتوى

التنضيد والمونتاج وتصميم الغلاف



عمّان - تلفاكس ٢٥٥٨ ٥٦٧ (٦ ٩٦٢)

e-mail : mohbasjo@go.com.jo